جاك - بيار أميت

عشيقة برتولد برشت

رواية



الفارابي

جاك ـ بيار أميت

عشيقة برتولد برشت

ترجمة: نهلة بيضون

دار الفارابي

عشيقة برتولد برشت

Jacques-Pierre Amette

La Maîtresse De Brechet

ROMAN

Albin Michel

الكتاب: عشيقة برتولد برشت

المؤلف: جاك ـ بيار أميت

المترجم: نهلة بيضون

الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان

ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)

ص.ب: 3181/11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

e-mail: farabi@inco.com.lb

www.dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى 2006

ISBN: 9953-71-099-6

الطبعة الفرنسية:

ISBN: 2-226-14163-4

Ouvrage publiè avec le concours du Ministère français chargé de la culture - Centre National du Livre.

المحتويات

إلى أختي

مدن

تحتها مجارير
داخلها خواء وفوقها دخان
عشنا فيها ولم نتمتع بشيء.

سرعان ما رحلنا عنها، وبِبطء ترحل هي أيضاً.

برتولد برشت
عظات منزلية

برلين الشرقية

1948

1

ظل برهة طويلة يراقب عبور الغابات وتوهج ألوانها النحاسية.

عند الحدود الفاصلة بين شطري المدينة، ترجَّل برشت من السيارة. دخل مركز الشرطة الألماني واتصل بالمسرح القومي. راحت زوجته، هيلين فايغل، تريِّض ساقيها حول السيارة. كانت شاحنة مصفحة تصدأ في حفرة قريبة.

بعد ساعة، وصلت ثلاث سيارات سوداء لاصطحاب الزوجين. من بين الذين قدموا أبوش، وبيشير، وييرينغ، ودودوو، وجميعهم أعضاء في الرابطة الثقافية. أشاروا إلى أن الصحافيين ينتظرون في محطة القطار، فعلَّق برشت:

ـ هكذا نكون قد تخلصنا منهم!

ابتسم. ابتسمت هيلين، وابتسم بيشير، اغتصب ييرينغ ابتسامة، ولم يبتسم دودوو. كانت هيلين فايغل تقف منتصبة وسط المسؤولين، وقد ارتبكت ذراعاها بباقة من أزهار الربيع. بطقمها الأسود، ووجهها العظمي، ونظرتها القاسية، وشعرها المعقوص، كانت مبتسمة ومنيعة.

صافح برتولد برشت بعض الأيدي. سحنات جامدة. سحنات رمادية. ظل الزوجان جامدين وسط معاطف مسؤولي الرابطة الثقافية.

كانوا جميعاً يلوحون منبهرين ببرشت هذا المستدير الوجه، بشعره المصفف على جبينه مثل أمبراطور روماني.

أخيراً يشهدون عودة برشت العظيم، أشهر كاتب مسرحي

ألماني، عودته إلى ألمانيا بعد خمسة عشر عاماً أمضاها في المنفى.

لما أبعد أحد رجال الشرطة آخر مصور صحفي، أغلق برشت باب السيارة، وابتعد موكب السيارات الرسمية.

كان برشت يتأمل إسفلت هذه الطريق التي تقود إلى برلين.

لا يدخل المرء إلى المدينة بل إلى طقسها الغائم.

شعارات جدارية إباحية، أشجار، أعشاب، أنهار كبيرة مهملة، شرفات متهالكة، نباتات مجهولة، أنقاض أبنية منتصبة وسط الحقول.

دخلت السيارة وسط برلين. بعض النساء اللواتي يغطين شعرهن بمنديل يرقِّمن حجارة.

رحل عن الأرض الألمانية في 28 شباط/فيڤري 1933. في تلك الفترة، كانت الرايات والصلبان المعقوفة تنتشر في كل الشوارع... اليوم 22 تشرين الأول/أوكتوبر 1948. انقضت خمسة عشر عاماً قاسية. اليوم، تمضي السيارات الرسمية بسرعة وتتخطى شاحنات سوفياتية وبعض المارة القلائل الذين يرتدون ثياباً رثة.

أنزل برشت زجاج النافذة وطلب من السائق التوقف. ترجل، أشعل سيجاراً وتأمل هذه الأنقاض. يسود صمت عارم، أسوار بيضاء، نوافذ محترقة، وأبنية كثيرة منهارة، شمس الأصيل، الريح، الكثير من الفراشات الغريبة، بطاريات مفككة، حصن منيع.

جلس برشت على حجر ثم أصغى إلى السائق يقول له إن إعادة بناء المدينة ممكن لو باشر الممولون بذلك، وفكر برشت في أن الممولين هم بالضبط الذين أطاحوا بالمدينة إلى الحضيض. ركب السيارة. يرخي بعض الجدران صفائح من الظل داخلها.

كيلومترات من الأنقاض، واجهات زجاجية محطمة، سيارات مصفحة، حواجز، جنود سوفيات أمام أفاريز وأسلاك شائكة. بعض الأبنية يشبه المغاور. حفرٌ، مساحات شاسعة من المياه، أنقاض

أخرى، مساحات خاوية، هائلة، وأحياناً بعض المارة المتجمعين حول موقف الترام.

كان موظفو فندق آدلون يراقبون وصوله من خلال النوافذ.

في الغرفة الفسيحة، خلع برشت معطفه وسترته. استحم، وانتقى قميصاً من الحقيبة. تحته بأربعة طوابق الأرض الألمانية.

في بهو الفندق، ألقيت كلمة ترحيب. وفيما كانت الكلمة تشكره على حضوره، استسلم برشت قليلاً للنعاس. خطرت بباله أسطورة ألمانية قديمة للغاية قرأها في مدرسة أوغزبورغ، واستحضرتها ذاكرته خلال إقامته في كاليفورنيا. لمحت خادمة شبحاً مألوفاً يجلس إلى جانبها قرب المصطلى، أفسحت له مكاناً صغيراً وراحت تتجاذب معه أطراف الحديث في ليالي الشتاء الطويلة. وفي يوم من الأيام، توسلت الخادمة لهاينز الصغير (هكذا كانت تسمي الشبح) أن يظهر على حقيقته. ولكنه رفض. وأخيراً، نزولاً عند إلحاحها، وافق وطلب إليها أن تنزل إلى القبو حيث سوف يتجلى أمامها على حقيقته. أحضرت الخادمة مشعلاً ونزلت إلى القبو. هناك، رأت في برميل مفتوح طفلاً ميتاً يطفو وسط دمائه. كانت هذه الخادمة، منذ سنوات عديدة، قد وضعت طفلاً في السر، وذبحته، ثم أخفته في برميل.

ربتت هيلين فايغل على كتف برشت لإخراجه من انخطافه أو بالأحرى من تأمله. انتصب، أصلح هندامه، خطر له أن برلين كانت برميلاً من الدم، وأن ألمانيا، منذ مراهقته، في خضم الحرب العالمية الأولى، كانت كذلك برميلاً من الدم، وأنه شبح هاينز الصغير.

سُفِحت الدماء في شوارع ميونيخ وانضمت ألمانيا الحديثة إلى أنهار الدم التي كانت تجري في الأساطير الجرمانية القديمة. لقد عاد إلى القبو، وكان يريد، بعقله المتواضع، من الآن فصاعداً، أن يخرج الطفل، ويرعاه، ويغسل بالماء البارد ذلك الدم الذي بقي على بلاط القبو. هكذا فعل غوته في مسرحيته فاوست؛ وهايني في كتابه عن

ألمانيا. كانت لطخة الدم أوسع من أي وقت مضى ؛ والأم ألمانيا تكاد تختنق.

من خلال النوافذ، يلمح نساء ينتعلن أحذية ضخمة ويرقّمن بعض الحجارة. اختفت الطرقات، ولم يبق سوى الدروب والغيوم.

لاحقاً، في أحد صالونات نادي الرابطة الثقافية، ألقى ديمشيتز كلمة مقتضبة ذكية.

رمق برشت بمرح بيشير ويبرينغ ودودوو. تذكر، عبر دخان سيجاره، كم كان هذا الثلاثي متنافراً ومسلياً. كان يرى أمامه أولئك الذين يقودون ألمانيا الشرقية نحو المفاهيم العظيمة للأخوة الفنية. اثنان منهم من رفاق الصبا. وقد أصبحا الآن "رفيقين".

تخيلوا ثلاثة رجال بسترات داكنة وقمصان بيضاء وربطات عنق منقطة. يرتدون، في القاعة الكبرى لنادي النورس، بدلات قماشها سوفياتي شنيع. كان ديمشيتز يقرأ ثلاث أوراق رمادية، متأنقاً مثل أستاذ جامعي أصبح عميداً وراح يراقب وزنه لإغواء الصبايا.

إلى جانبه، وقف يوهانس بيشير. لم يتغير بيشير. بنظاراته المدوَّرة والمزودة بزجاجات لقصر البصر، احتفظ بحنانه ودماثته. كان بيشير يذكر برشت الشاب، النحيل والمستاء الذي يعتمر قبعة ويضع سيجاراً أسود في فمه. يمد قدميه على كرسي، يطالع أو يتصفح، بالأحرى، الصحف البرلينية بعصبية، راضياً بكسبه السريع للكثير من المال بفضل مسرحيته أوبرا القروش الثلاثة. كان برشت يتعلم "اقتصاد الحرب" في كتاب صغير من الورق المقوى الأزرق، ويتجول حاملاً رسوماً عارية، ويريد شراء فأسٍ ليشجَّ الرؤوس الرخوة التي تدير المسارح البرلينية الكبرى. يجري وراء الترامات، ويصعد على سطوح المسارح، ويتأبط في كل ذراع راقصة. سوف يقدم للجمهور نضالات اجتماعية هائلة. ما كانت مشكلته؟ لم يكن قد تسنى له الوقت ليقرأ ماركس، ولكنه كان يؤمن إيماناً راسخاً بالماركسية كخزان هائل من

الأفكار للمسرحيات الهزلية. وبينما كان ديمشيتز يلقي كلمة الترحيب، تساءل بيشير إن كان برشت الكهل يخفي اليوم فأساً تحت معطفه ليهشّم بها جمجمة الكتاب الرسميين في جمهورية ألمانيا الديمقراطية...

كان يوهانس بيشير، وقد أصبح من كبار المسؤولين الثقافيين في المنطقة، يفكر بالمعطف الجلدي الممتاز الذي كان يرتديه برشت الشاب. وتساءل إن كان جلد برشت قد أصبح من السماكة بحيث يواجه "الرفاق" الخبراء في الآراء الماركسية، "الاختصاصيين" الذين يديرون اتحاد الكتاب المخيف.

كانت هيلين فايغل تذكر بدورها بيشير. ما تغير برأيها لدى يوهانس هو ظهره المستقيم الذي يدل على مراقبة للياقة جسده تليق بضابط. في الماضي، كان يرمي بنوى الكرز في شعور الممثلات، مسترخياً في أرجوحة. فكرت هيلين: سوف أتفاهم مع بيشير أفضل مما أتفاهم مع برشت.

ألقى هربرت ييرينغ كلمة مقتضبة. كان أكثر شحوباً، برأسه المستدير والأملس، ونظرته المنقّبة، المعزولة، المتبصرة، والراقية. يقلب الصفحات ويقرأ كتابته المنمنمة والمدورة بكياسة وعلى مسافة. تحفل كلمته بالصيغ السهلة والممتعة للأذن.

تذكر برشت أنه كان يقرأ، فيما مضى، النقد المسرحي لييرينغ كما يصغي المرء لتشخيص طبيب يحترمه. كان ييرينغ في ذلك الحين من أكثر النقاد المسرحيين احتراماً وترويعاً.

أصبحت هيئته تشبه هيئة دبلوماسي مع تقدمه في السن. ولكن نظرته فقدت حيويتها. لم ينتظر طويلاً للتخلص من تأثير النازية. كان النظام يفتقر إلى عقول على مثل هذا المستوى لإعادة بناء سياسة تربوية شعبية. وفيما كان يتلو مديحه لبرشت بأسلوب لامع، ظل الجو بارداً في القاعة. ختم كلمته بصوته المبطن، الهادىء والدمث. ثم مد

يده اليسرى ووضعها على كتف برشت ليذكره بأنه رافقه منذ البدايات. يلمس بيده الجوهر السليم لشبابهما، ثم ألقيت كلمة أخرى.

أحنت هيلين فايغل التي كانت تصغي، ساهمةً ومتعبة بعض الشيء، رأسها نحو برشت وهمست:

ـ من ذلك البدين الذي يحتفظ بقبعته في يده؟

أشارت إلى ذلك الذي يحمل سترة ضيقة ومزرَّرة بإهمال، الضخم، الأصلع والمتصبب عرقاً. تلوح أزرار أكمامه ضخمة مثل أزرار صاحب دكان مبتذل. يقف متأهباً كأنه يرى الفضيلة الألمانية تضيء القاعة بنورها الساطع.

أجاب برشت: ـ دودوو! إنه ذلك السافل دودوو!

سلاتان دودوو، عمل كذلك في برلين في العشرينيات، وكان كذلك رفيق العصر الذهبي. رفيق مرحلة الفسق، وبرلين العجائبية بنسوتها السهلة المنال ومتعها المكتسبة بطرف الأصابع من المال السهل الذي يخرج من خزائن المسارح الموشكة على الإفلاس.

اشتغل هذا البلغاري على سيناريو فيلم الفاتنة الباردة، في عام 1926 أو 1927. قاد برشت عام 1932، في موسكو التي كانت خاضعة لرقابة الأجهزة الأمنية. فكر برشت: لا بد أنه يقدم العمل الفني الملائم والمتوقع... الإرتخاء المرجح للعقل...لا بد أنه أول من خضع لامتحان المداهنة السياسية...

ابتسم لدودوو. صفق الجميع حين عانق بيشير فايغل وبرشت.

قدِّم نبيذٌ أبيض للحضور.

لاحقاً، في فندق آدلون، رن الهاتف (جهاز ضخم وعتيق يبدو كأنه قادم من فائض عتاد الجيش السوفياتي) ولكن فايغل هي التي أجابت. الجميع يرغب بلقاء برشت: ريني، بيكر، إربنبك، لوكاس.

أحضر أحد خدم الفندق صينية مليئة ببرقيات التهنئة. احتفظ برشت بنظرة ساخرة ورتيبة وراء دخان سيجاره.

أقبل الليل.

ظل برشت جالساً بمفرده في غرفته يتأمل تصريح المرور الجديد الذي حصل عليه.

2

كانت أجهزة الأرصاد الجوية في الجيش السوفياتي مستقرة بفندق خاص قديم كائن في شارع لويزينشتراسي، على مقربة من نادي النورس الذي يقصده كل الممثلين الرسميين للثقافة من أجل الثرثرة، ومطالعة الصحف، وتبادل الأخبار. خلف الأرض الجرداء، توجد أربعة أبنية تابعة للإدارة العسكرية السوفياتية. تضم مركزاً لمنح التأشيرات، وعدداً من مكاتب إذاعة موسكو، ومكاتب ملحقة تتكوَّم فيها باستمرار مجلدات ضخمة من التقارير التي تصل بالشاحنات من القيادة الحربية الألمانية السابقة.

دخلت ماريا أيش تحمل استدعاءها، إلى المبنى الثاني، ذلك الذي كانت نوافذه مغطاة بالقضبان، ودفعت باباً خشبياً له واجهة زجاجية. وجدت نفسها في رواق تنيره مصابيح خافتة وتتوزع فيه عربات تحمل أعداداً قديمة من مجلة سيغنال وملفات مستعملة تعلوها بطاقات الكراريس المدرسية المغطاة بكلمات مكتوبة بالحروف السيريلية وبحبر بنفسجي اللون.

تقدمت ماريا. كانت ترتدي معطفاً مطرياً رمادياً. شاحبة السحنة. عبر باب مشقوق، امرأة ترتدي بدلة رمادية متقشفة، وقد عقصت شعرها. كانت تتصفح بعض الأوراق.

ـ عفواً؟ أين مكتب هانز ترو؟...

التفتت المرأة إلى ماريا، وأشارت إلى آخر الرواق بدون أن تنبس ببنت شفة.

قضبان ملتصقة أمام نافذتين. ابتعد جنديان سوفياتيان إفساحاً لها في المجال للدخول. خرائط عسكرية قديمة وأخرى لمدينة برلين مصدرها وزارة الحربية الألمانية سابقاً، أبواب مزودة بأقفال معدنية غريبة، ألواح من الخشب المضغوط مستندة إلى حواجز عازلة مخططة بقلم النجارين العريض السميك: كانت كل هذه التفاصيل توحي بأعمال الترميم، والارتجال، والفقر، وسط الإنارة غير الكافية لمصابيح عارية معلقة بأسلاك معوجة تحملها مسامير.

حين دخلت المكتب الذي لا تنيره سوى نافذة مغطاة بالقضبان، لمحت فتاة قد ارتقت سلماً وراحت تخرج مصنفات من سلة غسيل وتضعها على رف.

كان هانز ترو يمسِّد عنقه متصفحاً تقارير مكتوبة باللغة الروسية. يرتدي كنزة جبلية مقلوبة الياقة، أشقر ورياضي الهيئة. كان يدون ملاحظات على بعض الأوراق بحركات خاطفة، دقيقة وسريعة. تفوح من المكان روائح الصمغ والتجليد الجاف. نزلت الفتاة التي كانت في أعلى السلم وتفحصَّت، وهي تنصرف، وجه ماريا.

مدَّ هانز يده قائلاً:

ـ ماريا أيش؟

ـ نعم.

قرَّب كرسياً ووضعه بحيث تظل ماريا وسط النور الذي يتسلل من النافذة ويبقى هو في الظل. خاطبها، بعد أن صرف معاونته، بنبرة يشوبها التراخي والتهكم:

ـ إسمي هانز ترو، وأنا مسؤول عن عبور الأشخاص بين المنطقتين.

رفع رزمة من نشرات الأخبار الاقتصادية وسحب من تحتها ملفاً

مجلداً تجليداً قماشياً راح يتصفحه. كان يضم أوراقاً مشبوكة ومطبوعة على الآلة الكاتبة وبعض أوراق الكربون المجعدة.

نهض، وتقدم ليتكىء على مقدمة المكتب. ظل مبتسماً، لا يحرك ساكناً.

ثم رفع ناظريه ببطء، وإذ انحنى قليلاً إلى الخلف، تفحص هذه المرأة الشابة ذات الوجه الفاتن. لاحظ أن شعرها مغسول بعناية، وأن سحنتها بالغة الشحوب، وأنها لا تكف عن تغيير موضع يديها. كان هانز ترو لا يستمتع إطلاقاً بإحراج تلك المرأة الشابة. لمح أن وجهها يتميز بإشراقة مدهشة بالنسبة إلى ممثلة. بم كانت تفكر ماريا أيش؟ بوغت هانز بمظهرها المتواضع والحزين بعض الشيء لأنه لا يتطابق مع الملف المرسل إليه من فيينا والذي يتحدث عن ممثلة بارعة وأصيلة، "مفعمة بالحيوية ومحبَّة للحياة الاجتماعية". وأخيراً، أخرج هانز ملفاً من القماش العاجي اللون، وتناول من الدرج قلماً سميكاً من الخشب البني، وتصفح الملف متحدثاً بدون تكلف أو شراسة:

- ماريا أيش، إسم جميل.

لم يرفع صوته وهو يقلِّب صفحات الملف، مدوناً إشارة صليب صغيرة، بقلمه البني، على هامش بعض الجمل المطبوعة على الآلة الكاتبة. أجابت ماريا أيش، من جهتها، عن مجموعة أولى من الأسئلة تتعلق بطفولتها، وماضيها في فيينا، وبداياتها الفنية، متسائلة عن السبب الذي يدعو ضابط الاستخبارات للتحدث بتلك النبرة الرتيبة التي لا تتسارع ولا تتباطأ. وشعرت أن كياسته التي يشوبها بعض التضجر مثيرة للقلق. أحسَّت ببعض التهكم حين سألها عن سبب كونها "محمية" شخصية مهمة مثل ديمشيتز.

كرَّر قائلاً: أنت محميته. محميته... فالرفيق ديمشيتز يدير القطاع الثقافي... تعرفين ديمشيتز منذ خمسة أشهر... أين التقيته؟

خلال الاستجواب، تراءى لماريا أن الضابط الذي عرَّف عن نفسه تحت إسم هانز ترو (كما يقرع الجنود أعقاب جزماتهم في الثكنات البروسية) مزوَّد بكل الأدلة على تواطوء أسرتها مع الوسط النازي في فيينا، نظراً لأنه كان يضع أمامه بطاقتي العضوية في الحزب القومي ـ الاشتراكي اللتين تخصان والدها، فريدريش هيك، وزوجها غونتر أيش. قلب هانز ترو صفحات الملف، وطفق يذكر تفاصيل عن عدم استقرار وضع والدها اللاجىء في إسبانيا، وعن زوجها المقيم في البرتغال بهوية منتحلة لا تخفى على الاستخبارات الألمانية الشرقية.

وبعد التركيز مطوَّلاً على مصير أبٍ وزوجٍ يعتبران "نازيين مجنونين" لا بد من احتجازهما في "مصح للمجانين"، اقترح عليها هانز، بنظرته الصريحة والثاقبة والمباشرة، ما سمَّاه "ضمانة عامة للمستقبل".

برصانة شديدة، وعوضاً عن الخوض في لعبة الأسئلة والأجوبة (كانت بحوزة هانز كل الأجوبة على أوراق)، عرض الضابط على ماريا العمل على" تغيير تاريخ" البلاد. وذكر مباشرة المواطنية، والمعاملة، والراتب، والضمان الصحي، والتموين، والمسكن اللائق، والارتقاء المهني. وكما في فيلم يراهن فيه أحد المقامرين في الكازينو بما تبقى من ماله على اللون الأحمر، سمعت ماريا نفسها توافق على كل شيء. فلو رفضت، سوف تضطر للفرار عبر الجسور، والشوارع، والدروب المتعرجة، واللجوء إلى القطاع الغربي لتجد نفسها بكل بساطة أمام ضباط أميركيين يجابهونها بأكوام من الأدلة الإتهامية حول الماضي النازي لوالدها وزوجها. ولسوف يكون وضعها أكثر حرجاً في ألمانيا الغربية؛ ولسوف تجر نفسها من ثكنة إلى مسرح عسكري مريع بلا دعم أو حماية. ولن تتمكن من توفير الأمان لطفلتها. ولسوف تصبح موضع الشك والمراقبة والترصد، وتقع فريسة

للقوادين. تخيلت محاولات إفساد لا عد لها ولا حصر. ما أكثر مشاهد الإذلال من جديد. تخيلت نفسها معدمة والعار يلطِّخ اسمها مع العلم أن ديمشيتز، المسؤول الثقافي في المنطقة السوفياتية، "صديقها". تنبهت إلى الأصوات الخافتة والسريعة لولاعة هانز ترو الذي كان يشعل سيجارة ويلهو بها. وسمعت الرجل من خلال غشاوة يؤكد لها:

ـ كنت عشيقة ديمشيتز.

لفَّت خصلة من شعرها حول سبابتها.

ـ تريد أن تعرف ذلك؟ لا، لم أضاجع ديمشيتز...

ـ لا بأس، لا بأس، لا بأس.

تنحنح قائلاً:

ـ سوف يحصل ذلك...

في هذه اللحظة، دخل المكتب رجل في حوالى الثلاثين من العمر، يميل إلى الاكتناز، شعره ملتصق على رأسه بمادة تلميع، ياقة قميصه مجعدة، وسترته القديمة الطراز ينقصها بعض الأزرار. جفَّف العرق الذي يتصبب من جبينه بمنديل كبير تزينه مربعات. غمغم تحية إلى ماريا، كما يقدم المرء التعزية. بحث عن كرسي ووجد واحداً خلف عدد من الملفات حول حصص الفحم وإعادة استعمال مخزون القفازات والجزم.

كان ذلك الذي عرف عنه هانز ترو تحت إسم تيو بيلا، معاونه، يشبه حاجباً برلينياً من فترة ما قبل الحرب ببدلته المجعدة وربطة عنقه السوداء التي تلوح كالخيط على ياقة رثة مشبوهة البياض. يلوح بشعره المدهون كالجثة التي انتشلت من الماء. تمتم تيو بيلا، بنبرة متضجرة، بدون أن يعير الزائرة أي اهتمام:

ـ بدأت ترهقني الأحاديث الأزلية حول القمح والفحم مع المسؤولين في جمعية الشباب المسيحي...

أخرج من جيبه ورقة زرقاء مجعدة. بسطها متنحنحاً ثم قال:

ـ هل تعرف ديتريش بابيكي؟

أجاب هانز الذي استاء من المقاطعة: ـ كلا.

ـ لا بد أن أتحدث إليه وإلا فسوف يعود لزرع البطاطا في نواحي شفيرين.

لوَّح هانز بإصبع حائر وقام بالتعريف:

ـ تيو بيلا، ماريا أيش...

ـ أنت الممثلة؟

أجابت ماريا: ـ أجل.

تأمل تيو هذه المرأة المنمنمة بوشاحها الموضوع برصانة على معطفها، وشعرها الفاتن الإشقرار والتجعيد. شعر بالحرج أمام هذه المرأة الجميلة التي تخفي بدون شك قلقها وراء برودة متوجسة عارمة. وفيما تابع هانز الكلام، وضع تيو قطعة من الورق المقوَّى تحت نافذة كان يرشح منها المطر؛ ثم مسح الماء الذي رشح بطرف سترته.

تابع هانز:

ـ إذن، ليس لديك علاقات مميزة معه. تعلمين أننا على علم بذلك. فالوحدة التي أنت فيها...

ـ لا تخطىء الظن، فأنا لست وحيدة.

ـ ولكن...

ـ لا، ما كنت يوماً وحيدة.

ـ عفواً؟

أوضحت ماريا: ـ إنها الحقيقة بعينها، لا أشعر بالوحدة أبداً، إطلاقاً!

شابت الاستجواب لحظة ارتباك. أخفى هانز ابتسامته، وتساءل كيف بوسع المرء التواصل معها، وما السبيل لتحطيم درع كبريائها الصغير الجميل.

ـ هل تعلمين سبب استدعائك إلى هنا؟

ـ كلا.

ـ يمكن اختصار مشروعنا كما يلي: علينا إعادة بناء هذا البلد بواسطة أشخاص مخلصين. ومن غير الوارد أن نعود إلى نظام فايمار...

توقف المطر تدريجياً، وما عاد يسمع سوى الجريان المخنوق للمياه في أحد المزاريب. قال تيو بيلا الذي كان يرتب بحركة آلية أختاماً مطاطية:

ـ لا نسعى للانتقام بل نعتقد، على العكس، أن ألمانيا الحديثة لا بد أن تصل إلى مرحلة النضوج، وتكرس قيماً جديدة، ونريد أن يعرب الممثلون عن حماس سياسي، ويتفهمون مصالحنا، ويدعمون العناصر الإيجابية بمواجهة كل مظاهر الرجعية التي ما زالت تكبل العقول. هل تفهمين؟

تابع هانز:

ـ الحالة الذهنية، السيطرة على الحالة الذهنية...هل تفهمين؟ هذا يصبُّ في ما تتمنين وفي ما يتمناه الرفيق ديمشيتز... أجل؟... تحريرألمانيا... لقد حصل عسكرياً... ولكنه يتقرَّر الآن سياسياً... ويمر من خلالك، ومن خلالنا...

جلس تيو قرب ماريا:

ـ إننا نعيد بناء ألمانيا الحقيقية. لن يكون فيها عاطلون عن العمل، وأشخاص أذلّاء، ولا استفزازات، ولا وشايات، إنما علينا توخي الحذر. سوف تصبحين مناضلة. سوف تكونين واحدة منا. لن نعيد بناء ألمانيا العسكريتاريا... في ألمانيا الأخرى، يعد نصف النازيين المجرمين العدة للانتقام... ويأكلون كعك البريتزل الساخن مع الجنرالات الأمريكان، وهم على استعداد بالطبع للمطالبة بالعدالة ملوحين بمريلة الجزار! في نظامنا، نحن بحاجة إلى طليعة تؤثر في

رفاقنا وتثقفهم، تنقي القلوب، وتوفر العمل والخبز والكرامة...عليك أن تساعدينا!... كما عليك أن تصغي إلى برشت. سوف تصبحين كاتمة أسراره. وسوف ننجح في نهاية المطاف بمعرفة من يكون!...

سألت ماريا، مذهولة: هل ترتابون به؟

ـ في الواقع، لا نملك أي شيء ضده. وبودّنا أن نعرف ـ وسوف نعرف ذلك في نهاية المطاف ـ من يكون. هل هو "رفيق" حقاً؟ لقد اختار الولايات المتحدة...

توقف تيو عن الكلام وأخرج سيجاراً صغيراً مربعاً:

ـ لديك طفلة في برلين الغربية...

ـ لوتي تعيش حالياً مع جدتها.

ـ أين؟

ـ في القطاع الأميركي، بعد شارلوتنبورغ.

ـ أجل، لدي العنوان. لماذا هي في برلين الغربية؟

ـ إنها تعاني من الربو. والأميركيون يملكون أدوية ناجعة... لمعالجة الربو.

قال هانز: ـ حسناً، سوف يكون بوسعك أن تزوري ابنتك لوتي متى تشائين.

فتح الخزانة وأخرج وثيقتين من علبة طباشير. تصريح بالمرور من الورق المقوّى الرمادي رسم عليه بالعرض خط أحمر شاحب، وإيصال بالإستلام.

لما وقعّت ماريا على الإيصال بقلم هانز، قال تيو:

ـ أصبحت الآن واحدة منا.

أضاف هانز: ـ سوف تحصلين على مسكن ومقصورة خاصة في المسرح القومي.

ـ لا بد أن نعلم من يكون برشت... وما هي أفكاره...

رفعت ماريا عينيها الشاحبتين وتلعثمت:

ـ ولكن... ولكن...

ـ يكفي أن تتقرَّبي من برشت. سوف ترين أنه سيأتي إليك مساء في مقصورتك، وما عليك سوى أن تفتحي له الباب... أحياناً، لا بد أن تصغي إليه، وأحياناً أن تطرحي عليه الأسئلة. تعلمين أن الأميركيين في الطرف المقابل يستعدون مجدداً للحرب. نريد أن نعلم من يكون برشت. كل تلك الفترة التي قضاها في كاليفورنيا... لقد رحل عن ألمانيا منذ وقت طويل...غادر أوروبا منذ أمدٍ بعيد... ومن يدري من يكون. إنه مفكِّر عظيم إنما لعلَّه تغير. مكانته عظيمة ونريد أن نعرف إن كانت عظمته الفكرية بمستوى المهمة التي أوكلناها إليه. سوف تساعديننا.

ـ ولماذا أنا؟

ـ على الجميع أن يضطلع بمهمة في مجتمعنا الجديد للحؤول دون عودة الفظائع النازية. الحرب مستمرة يا ماريا أيش...

قال تيو وهو يشعل ثانيةً سيجاراً صغيراً: ـ لا ضير من العيش في ظل رجل عظيم.

سألها هانز: ـ هل في حياتك رجل؟

ـ لا أحد.

ـ حسناً...

أحنت ماريا رأسها محتارة.

ـ لو احتجت إلى بن، سكر، حطب، ملاءات، لحم، أطباق من الفضة، مغسلة جميلة، أطلبي...

وضع تيو قلمه جانباً.

ـ من غير الوارد أن تكوني شخصاً غير مفيد في مجتمعنا.

وكرر هانز ترو: "قلوب متوقدة ونقية"، هذا ما نحتاجه.

وأضاف تيو بيلا: ـ كل شيء يصبح ممكناً بالإرادة الطيبة.

زوَّدها تيو بيلا، قبل أن تجتاز منصرفةً عتبة المكتب، بعنوان في

شارع شومانشتراسي لتصوير رئتيها بالأشعة. فالسلُّ كان منتشراً بسبب نقص الحليب واللحم والبؤس.

في اليوم التالي، قرب إحدى القنوات المائية، بمنأى عن المطر الغزير تحت شجرة زيزفون ضخمة، أطلع الضابط هانز ترو ماريا على المعطيات الجغرافية ـ السياسية الجديدة بسبب تقسيم ألمانيا وإعادة التسلح الكارثية الوشيكة لألمانيا الغربية. أخرج من جيبه وثيقة رسمية بالإنكليزية، نسخة سرية عن المؤتمر الذي انعقد في دير هيميرود بمنطقة أيفيل، واعتزم خلاله ضباط نازيون سابقون تنظيم "دفاع" هجومي عن ألمانيا الاتحادية ضد القطاع السوفياتي...

ـ دفاع هجومي... هل تفهمين يا ماريا؟

كان هانز يقول:

ـ برلين برمتها ترتدي الأسمال! بدلاً من أطنان الفحم، لا شيء سوى بضعة ألواح مقتلعة من أرضيات وزارات الرايش السابقة تحترق في مصطليات قليلة. كل ما يتعلق بالفحم والوقود وتداول المواد الغذائية الضرورية ووصولها مرهون بالروس. إننا نعتمد على الروس وموسكو صاحبة القرار.

سألته ماريا: ـ وهل سوف تقرر موسكو مصير مسرحنا؟

أجاب هانز ترو باقتضاب: ـ لماذا تسألين؟ إنها الفرصة الذهبية لأخوَّتنا العظيمة والجديدة.

كان هانز الجالس على المقعد العمومي قرب ماريا أستاذاً مراعياً يلقِّن تلميذته أن العالم موزَّع بين أخيار وأشرار، وأن ساحة المعركة حيث هي موجودة، وعلى ماريا الاقتناع بأنها موجودة وسط أفضل القوات، وأن البلاد لا يجب أن تسقط ثانية بين أيدي عصابة من المجرمين، وعليها أن تضطلع بدورها في هذه المعركة.

أضاف: ـ لا تخافي. يتحمل الفنانون مسؤولية جسيمة في وصول النازيين. أصابهم الهلع أمام وحدات الهجوم النازية الزاعقة في

الشارع، فاستسلموا ولزموا مقصوراتهم يتبرجون. إنهم جيل من الدمى... لن تكوني دمية يا ماريا!...

خيم الصمت، ثم تمتم هانز كأنه يرتجل اعترافاً: "ما زلنا سجناء الفكر البرجوازي. وسوف يتغير هذا الوضع...".

شرح لها هانز كذلك أن بعض التحركات العسكرية يستهدف برلين الشرقية.

بين نضال فني بسيط والتحول إلى عضو جديد في جهاز أمن الدولة، ثمة خطوة. أقدمتْ عليها.

وضع هانز المعطف على كتفيها إذ شعر أن متطوِّعته العتيدة "قلب متوقد ونقي". ابتسم وأوصلها إلى نادي النورس.

3

كانت ماريا ترمق كل شيء حولها بفضول وهي تدخل إلى مطعم نادي النورس. اتجهت نحو مائدة المعلم وقد تدثرت بمعطف أسود طويل مزين بياقة من فرو الأستراخان. كان برشت، من جهته، يلوح كفلاح اغتنى وعلق قبعته على غصن شجرة تفاح.

أغمض عينيه وراح يتذوق سيجاره. أصغى إلى كاسبار نيهير، مصمم ديكورات مسرحياته الأمين، أقدم أصدقائه وأكثرهم إخلاصاً، لأنهما تعارفا في مدرسة أوغزبورغ عام 1911، ولم يفترقا منذ ذلك الحين. "كاس" كما كان برشت يدعوه. في تلك اللحظة، كان يطلعه على عدد من الصور لإخراج مسرحية أنتيغونا في مدينة كوار بسويسرا. حواجز عازلة مغطاة بقماش أحمر، أكسسوارات وأقنعة معلقة على

معلف، انطباع بالخواء وإضاءة مسطحة. تأمل برشت باهتمام ملحوظ جماجم الخيول المصنوعة من الورق المقوَّى المغلي.

ـ إضاءة واضحة ومتجانسة.

تناول صورتين كانت مساحة الأداء الوحشي فيهما محاطة بالظلال.

ـ كلا! أكثر وضوحاً! أكثر تجانساً!

أشار كاسبار: ـ الظلال أفضل حالاً وراء الأعمدة وجماجم الخيول.

ـ لا، الإضاءة الباردة سوف تساعد الممثلين...

أحاط كاسبار نيهير، بحركة من سبابته، الدائرة الضبابية التي تمر خلف الأعمدة.

ـ وهنا؟

أوضح برشت: ـ المناخ أصلاً غسقي للغاية. وليس من الضروري أن يتساءل الجمهور تساؤلات غير تلك التي تطرحها الشخصيات على الخشبة. كاس، عليك أن تزيل هذا الجانب الغسقي الذي يخفي الخلفية. لا بد أن تظهر تلك الخلفية. لا ثقب أسود، لا أحلام بل إضاءة باردة وحادة. في كل هذه المساحة المعتمة، قد يخال المرء أن ثمة جرائم ودسائس وأشخاصاً مختبئين. يمكن أن يذبح فيها أحدهم أو يحلم بغابة تتحرَّك. لا!

التفت برشت نحو ماريا وأخذها شاهدة على كلامه:

ـ كان الممثلون في مسرح شكسبير "الغلوب" ينعمون فقط بالإضاءة الباردة لفترة العصر اللندنية!

كان النور الجانبي المتسلل من إحدى النوافذ يضيء أعلى وجه برشت الذي يتكلم بلكنة بافارية، خشنة نوعاً ما وبطيئة.

يوقظ لديه حديثه عن المسرح العتيد كل إيجابيات الحياة التي عاشها في برلين خلال العشرينيات، خلال فترة تكريسه المسرحي،

والنجاح الباهر الذي حققته مسرحيته أوبرا القروش الثلاثة. تابع برشت كلامه مخاطباً الجمهور كأنه لم يسمع ما قاله نيهير: ـ أنظروا إلى الشارع، إنه قريب منا للغاية بحيث لا يلاحظه الكثير من الناس، الشارع... الشارع...

ثم خاطب ماريا قائلاً:

ـ لمعرفة المسرح، لا حاجة للشعر.

وأضاف:

ـ يكفي البقاء على تواصل مع الشوارع. الشوارع الفقيرة، الشوارع الغنية، الشوارع الخاوية، الشوارع المكتظة!

لاحقاً، دوَّن برشت في السيارة بعض الملاحظات. كان يبدو له أن كل البرلينيات قد هرمن. يده ترتعش، المدينة تمر أمامه، الانفراجات على القناة، الألواح الزجاجية المحطمة في واجهات المصانع، الجدران القاتمة، المكب. السيارة، المارة، الجادات، المحطات المهجورة، تلاقي الموتى.

ـ لا بد أن يكون تبرجك على المسرح أقل إبهاراً، أقرب إلى التبرج الصيني. والتعبير أقل على وجهك. سوف أشرح لك...

بلغا شارع شومانشتراسي القريب من قاعة التمارين. توقفت سيارة الستير السوداء أمام بوابة عيادة قديمة.

أخرج أحدهم ـ كاسبار نيهير ـ كاميرا من طراز لايكا. دخلوا باحة قديمة مقنطرة أعتمها ممر زجاجي واجهاته محطمة. التمَّت المجموعة الصغيرة، برشت قرب ماريا، ووقفت ساكنة من أجل التقاط الصورة العائلية. كان الضباب المذهَّب يحدد معالم أوراق الأشجار. اجتاح الجميع إحساس بالفضاء الدافىء. وسرت لحظات من الارتباك الجماعي. كان شعوراً مباغتاً. سرعة دوران الكوكب نصف الميت تحمل معها ضفاف الماضي الذهبية وشيطنات الأجيال المندثرة.

أعلن برشت: ـ أقدم لكم أنتيغونتي! ماريا أيش!

اقتربت فايغل من ماريا بسحنة واضحة وضوح جدار أبيض وقالت لها: " أنت من فيينا مثلي". فكرت سراً: إنها شابة ومعافاة. نعجة للذئب. هيئتها مغناجة، أنفها متمرِّد مثل أنف النساء الشابات اللواتي يتلقين بملل مديح الرجال. شعرها جميل وناعم، وأنا شعري غزاه المشيب. شابة هي وأنا عجوز! علاقة غرامية أخرى سرعان ما تنتهي... لن يكتب لها الاستمرار طويلاً.

أعلنت هيلين بجفاء:

ـ التمارين تبدأ يوم الإثنين!

طوال ثلاثة أيام، قدَّم برشت ماريا لكل من التقى بهم:

ـ ها هي أنتيغونا! إسمها ماريا أيش!

حقل من الأنقاض. برلين تشبه شاطئاً مهجوراً. في إحدى الأمسيات، بمقهى برندت، سحب برشت من جيبه مفكرة وخط بالقلم دائرة تحتوي على أعمدة غريبة. تناول البطاقة الموضوعة تحت الكأس ورسم عليها جماجم خيول.

ـ هذا هو نطاق أداء أنتيغونا.

كان يظلِّل داخل الدائرة.

ـ سوف تمثلين هنا. والممثلون الآخرون سوف يجلسون على مقاعد. هناك.

لاحقاً، عاد من المرحاض. جلس، وخربش رسماً آخر، مكسواً بالشعر، إباحياً، من ذلك النوع الذي يصادفه المرء على أبواب المراحيض.

انفجر ضاحكاً.

في اليوم التالي، سلكا شارع شاريتيشتراسي. كان برشت يسير بكل ثقله، يمتلك الرصيف، كفلاح يعود إلى مزرعته. جلس فجأة

على مقعد عمومي. أطبقت يده على يد ماريا. كانت الشمس تعكس ظله على آجر مبنى شاهق قذر. هيئة برشت ثقيلة. نزع نظاراته ليمسحها بمنديله. تناولت ماريا النظارات والمنديل. مسحت واكتشفت التعب، والعينين المحتقنتين قليلاً، والهالات التي تدل على وهن القلب أو اقتراب الشيخوخة. قال برشت:

ـ كل الأنتيغونات حتى الحين ينتمين إلى الماضي، ويتحدثن عن الماضي. سوف تكونين أول أنتيغونا تتحدث عنا... بدون الغرق في هيللينية جمالية وبرجوازية صغيرة. كيف ندفن أبناءنا الألمان؟ كيف؟

لم تفهم ماريا شيئاً من كلامه.

4

بينما كانت ماريا تتآلف مع صالات التمارين في المسرح القومي، وترتب شقتها، وتشارك في كل الوجبات مع الممثلين المتحلقين حول برشت في نادي النورس، كان هانز ترو مستغرقاً، ليلة إثر ليلة، في الملفات التي يرسلها مركز موسكو. يحدث أن يصعد إلى الطابق الأخير في المبنى، ويسلك ممراً يضيق ويفضي تحت السطوح إلى زنزانة موصدة بقفل كان هانز وحده يملك مفتاحه. في الداخل، جدران مغطاة بالورق الملون المحاط بهالة من الرطوبة، جص مهترىء، مذياع قديم، أكوام وأكوام من الملفات المكتوبة باللغة الروسية يزيحها هانز، يفتحها، يطالعها أو يضعها ثانية في خزانة حديدية.

طوال ليال كثيرة، جلس هانز على مقعد خفيض، يراجع، يصنِّف، يتصفَّح، يدوِّن الملاحظات، ويغرز الدبابيس في هذه

المعلومات التي أرسلتها موسكو. ثمة مواد هائلة حول عادات برشت وعلاقاته، واهتمامه الغريب بمعركة علماء الذرة ضد الدولة، وأسلوبه في الحصول على المال من مصرف سويسري كان كذلك مصرف المخرج السينمائي فريتز لانغ، وطريقته في قص صفحات المجلات، ما يتعلق فيها بالإصلاحات الزراعية في الإتحاد السوفياتي، حرصه التام على تدوين أعمال فساد البرجوازية الأوروبية التي تعاونت مع ألمانيا النازية، انبهاره الغريب بكل ما يتعلق بالفيزياء الكمية في المجلات العلمية، هجومه المقلق على احتكار العسكر للسلطة، في الإتحاد السوفياتي أو الولايات المتحدة على حدٍّ سواء، وكذلك ـ ما انتزع ابتسامة من هانز ـ ملاحظاته الإباحية حول الممثلات الأميركيات، واحتسابه للمهارات الجنسية التي تتميز بها عشيقته الأسوجية، روث برلاو، المدمنة على الكحول.

جمعت هذه المعلومات في خزانة حديدية كان هانز وحده يعرف شفرتها. وعلى هذا النحو، صار هانز ترو على علم بكل شيء عن المنافي المختلفة لبرشت في غضون بضعة أشهر من ليالي الأرق. مرحلته الأولى في الدانمرك، بمدينة سفندبورغ، في البيت الجميل المسقوف بالقصب، حين كان برشت المبتهج والمتفائل والمتبجح يدوّن آنذاك في مفكراته الكثير من الأحكام البلهاء عن "عصبة موسكو" لأن المسارح السوفياتية الكبرى تعرض مسرحيات لمؤلفين لا يروقون له في إخراجات ينعتها "بالبضاعة التعيسة". ثم انتقل إلى السويد، فإلى بيت وسط أشجار السندر بفنلندة، يعتريه الخوف من عدم الحصول على تأشيرة للولايات المتحدة، وليالي السهاد التي كان يمضيها يستمع إلى الراديو، وإلى مذيع يردد الدعاية النازية فيما برشت ينقل البيارق الصغيرة في جبهة المعارك على الخارطة الجدارية.

كان الأمر الوحيد الذي يخشاه برشت عبوره للاتحاد السوفياتي

في طريقه إلى فلاديفوستوك. أصبح هاجس الاعتقال في موسكو بدهياً واستحواذياً مما أصاب هانز ترو بالذهول. كان مركز موسكو يصف مسرحياً يتميز بماركسيته البدائية. كان ذلك الجبل من الوثائق يصف شخصاً متذوقاً للجماليات بدلاً من رجل سياسة، فناناً منبهراً بمسرحيات رجال العصابات، والروايات البوليسية، وآراء لوثر حول الشيطان، والسبل لري الصين القديمة. يقتطع هانز أحياناً ملاحظة ويضعها في شنطة جلدية يحملها صباحاً إلى مكتبه في الطابق الثاني، يسلمها لتيو بيلا الذي يطبع بإصبعين فحوى هذه الملاحظات على آلة كاتبة مزودة بحاملة ورق طويلة عثر عليها في وزارة الحربية الألمانية سابقاً. كان الرجلان يعدان تقريراً لبيشير الذي يرفعه إلى كوبا الذي يحتفظ به ثلاثة أيام قبل إرساله إلى مكتب الزعيم، ديمشيتز العظيم، المسؤول الثقافي عن جمهورية ألمانيا الديمقراطية.

كان تيو بيلا، من جهته، يبصق على "ذلك العش من المتمسرحين، تلك العصافير الجميلة من المتمسرحين، بنزعتهم الداعية لفن ثوري"، الذين لا بد أنهم "يزعجون الطبقة العاملة"، إذا ما استعاد المرء تعبيره، وهم يؤدون فاوست وإيفيجيني في القرم. خطر لهانز صباحاً، وهو يستحم في المبنى قرب الملعب أمام المقصف، أن كل ذلك متنافر على نحو غريب. والغريب في الأمر أنه كان لا يسلِّم تيو إطلاقاً لا مصنَّفات موسكو الضخمة التي تحتوي على التقارير عن الأشخاص الذي أقام برشت لديهم في فنلندة، ولا مذكرات مكتب التحقيقات الفدرالي غير القابلة للتصديق المصحوبة بصور فوتوغرافية غير واضحة.

كان هانز ترو يجمع ويصنِّف كذلك الوثائق التي قدمتها مضيفة طيران بريطانية. وثمة كذلك أوراق لا تتعلق مباشرة ببرشت بل أرسلها مكتب التحقيق الفدرالي إلى مركزه الرئيسي في بوسطن. الكثير من المذكرات حول المنفيين المشكوك بانتسابهم سراً إلى الحزب

الشيوعي لا سيما فرانتسيك فايسكوبف الذي كان عضواً في الحزب الشيوعي التشيكي.

طوال أسبوعين، بربطة عنق محلولة، غاص هانز تدريجياً في ملاحظات عميل يدعى جوني ر. أمضى حياته يرتاد الكوكتيلات و"حفلات" المخرجين السينمائيين في هوليوود وخاصة تشارلي تشابلن وفريتز لانغ. كان ينتحل صفة متدرب مساعد ولكن هويته الحقيقية لم تكن خافية على أحد. يحبس نفسه في المرحاض ليدون على مفكرة أقوال أولئك المنفيين الذين تعارفوا أثناء حكم جمهورية فايمار. وثمة أنا سيغيرز، الأديبة الشيوعية، والمخرج إروين بيسكاتور الذي لطالما عجز عن التفاهم مع برشت أيام مسرحية أوبرا القروش الثلاثة، وفرديناند بروكنر الذي ترجم غادة الكاميليا وعمل مع هيلين فايغل على مسرحية لهيبيل عام 1926.

ابتسم هانز ترو، متصفحاً هذه الملاحظات، وهو يتخيل فريتز لانغ وبرشت وهيلين فايغل يسلكون سانست بولفار. وفي المساء، يتجاذبون أطراف الحديث على السطيحات وهم يتأملون ساعة الغروب. انسيابات مضيئة لا تنتهي من السيارات الفارهة... كان هانز ترو يتناول سيجارة ويسحب منها نفساً مديداً، ثم يغوص مجدداً في هذه الملاحظات. يرى تشابلن وبرشت يسيران قرب المحيط الهادىء. الأجنحة البيضاء للزوارق الشراعية تنساب عند خط الأفق. ثم ينضم تشابلن وبرشت إلى غروتشو ماركس ويستمع الثلاثة إلى نتائج إعادة انتخاب روزفلت فيما تغرب الشمس على المحيط.

هنا، كان الليل يقبل، وبرلين تزرقُّ وسط أنوارها المرتعشة. تناول هانز رسالة أخيرة مطبوعة على الآلة الكاتبة كانت موجودة في الملف، عنوانها "المنفيون"، وبسطها منهجياً وهو يسحب من سيجارته أنفاساً طويلة. دوَّن على مفكرة أرقام المبالغ الخيالية التي اقترضتها باربارة، إبنة برشت، من المصارف الأميركية. وأنهى أمسيته

مبعثراً رماد المنفضة في موقد الفحم وممعناً التفكير في الدعابات المناهضة للسامية التي كانت تتناقلها أوساط الفنانين حسب عميل مكتب التحقيقات الفدرالي. أطفأ المصابيح الثلاثة في المكتب، ثم في الرواق، وألقى التحية على الحاجب في أسفل السلم.

في الخارج، كانت السماء تمطر والثلج يذوب.

5

أخرج تيو بيلا البدين الورقة من أسطوانة التحبير بعد أن انتهى من طباعة التقرير على الآلة الكاتبة المزودة بحاملة أوراق طويلة. أعاد قراءة ما كتب: "وجدت ماريا أيش ملاذاً في عملها، بعد اتهامها بوقوعها في غرام نازي لا يصلح لأكثر من صنع حطب التدفئة، ولم تكف عن السعي لتصبح الممثلة الوحيدة العظيمة في المسرح القومي رغبةً منها بالحصول على العزاء بفضل العمل الدؤوب".

تكون لديه الانطباع أنه حرَّر ملخصاً في غاية النباهة ثم التهم قطعة صغيرة من اللحم الملفوفة بقشرة من العجين والممروغة بالخردل. وكذلك احتسى كأسين من الجعة مطلقاً تنهيدات ارتياح. تأمل المغيب بسحنته الحمراء وعينيه المبللتين. من النافذة، كان بوسعه أن يرى مصابيح الشاحنات التي تتجول في القطاع الأميركي. تصفح تيو، من أجل الاسترخاء، صحيفة نويس دويتشلاند (ألمانيا الجديدة) ووقع على صورة لبرشت برفقة بعض الممثلين. رأى أنه يشبه أولئك الفلاحين الذين يصادفهم القارىء في قصص الأخوين غريم. يقايض إوزة عوراء ببقرة، موحياً لك بأنك تقوم بصفقة مربحة.

فتح تيو شنطته السوداء ووضع فيها الأعداد الأخيرة من صحيفة ألمانيا الجديدة التي تمجد الشبيبة الشيوعية، رأس حربة الأمة.

خرج. ريح مباغتة محمَّلة بالمطر، حورةٌ تعنفها الريح. أضحى طيفاً في دوامة من الأوراق؛ في المساء، الأنقاض تتطاول وتفرغ الأرض من معناها.

اصطحب برشت ماريا لزيارة فيلا البحيرة البيضاء بعد غداء في نادي النورس. كان ذلك البيت المعزول في الغابة، على ضفة البحيرة، مشيداً بأسلوب كلاسيكي محدث بواجهة إغريقية، وأعمدة، ومدخل مغطى بمظلة تحتجز الأوراق المتعفنة في الشتاء.

كانت سيارة الستير السوداء تسير في طريق موحلة.

دخلا إلى الفيلا بعد أن بحثا مطولاً عن المفتاح المناسب في علاقة المفاتيح.

فوجئا برائحة عفونة شديدة للغاية. دفعا بالمصاريع الداخلية المكسوة بخيوط العنكبوت، سارا على الأرضية المفروشة بالذباب الميت، ارتقيا السلم الرخامي الكبير الذي يقود إلى الطابق الأول، واجتازا صالات كثيرة معتمة. كانا يتحدثان بصوت منخفض، ويجولان في الحجرات الكبيرة بمعطفيهما. مكثا في البهو الأرضي، جالسين قليلاً يتأملان الأغصان عبر النافذة، من خلال ناموسيات قديمة. قبلته ماريا فابتعد قائلاً:

ـ لا تقبليني!

كان أحدهما يقف أمام الآخر. لا ماض مشترك بينهما. ما يجري أمام أعيننا ليس إطلاقاً ما يجري في القلوب. فكرت ماريا: سوف أرقد وأمشي وأعيش وأنام مع هذا الرجل. بالنسبة إلى ماريا أيش، كانت ألمانيا بلداً جديداً، سلسلة من الهضاب الخضراء التي تنتصب على أطرافها غابات من أشجار السندر، والطرقات السريعة المدمرة، والغيوم؛ أما بالنسبة إلى برشت، فقد كانت بلداً لا بد من إعادة

إعماره بالمال. كانت حقل تجارب، مختبراً لثورة إيديولوجية معدة للأجيال الشابة. لا هو ولا هي كانا يتشاركان في ذلك البلد.

في حين كان كل شيء مغموراً بلون رمادي أغبر وكآبة فترة العصر وسط الحجرات الكثيرة الفارغة، اتكأ بريشت على رخام مدفئة. كانت الأبهة المظلمة لهذا البيت الكلاسيكي المحدث، والذهب العميق والمتهالك للستائر العتيقة يقدمان له الدليل على أن ديمشيتز والآخرين قرروا اختيار العظمة ومعاملته بصفته الفنان الرسمي للبلاد.

ثم رمق ماريا أيش تتذوق أرباع برتقالة. فيها ما يثير الاضطراب. شرائح البرتقال تختفي في فمها ورأى أنها تشبه امرأة هندية صغيرة ووحيدة. لا بدَّ أنها تتكور على الأريكة حالما تُعرَّى من ثيابها. شعر بنفسه فقيراً هندياً عظيماً واعتبر أنه من الممتع كون الممثلات اللواتي تتراوح أعمارهن بين الخامسة والعشرين والثلاثين كثيرات للغاية وأنه بالإمكان خداعهن ومضاجعتهن بلا استثناء.

أشعل سيجاراً. سوف يتجسد سخاؤه من خلال توظيف ماريا أيش في جمالية مسرحية تجعلها أكثر أهمية من بقية الممثلات. لم يكن شريفاً أبداً في السرير (وفكر: في الفراش)، ولكنه كان سخياً دائماً على خشبة مسرح مضاءة إضاءة جيدة ولسوف يحول هذه المزهرية النمساوية إلى أنتيغونا عظيمة. كانت الفتنة بعينها، سوف يأكل كلاهما على مائدة واحدة، ويرقدان في سرير واحد، ولن يخطر ببالهما أبداً الأمر عينه في اللحظة نفسها، الأمر الذي سيكون لذيذاً لفترة مؤقتة. مبتسمة، شقراء، شاحبة الوجه، الفتنة بعينها...

خطا بضع خطوات نحو الردهة. كانت قد خلعت معطفها واكتفت بوضعه على كتفيها. راحت تتجول بدورها في المنزل واكتشفت مستودعاً قديماً في آخر الرواق. وجدت فيه أطباقاً قديمة يعلوها هليون نافر من الخزف، وكذلك شوكاً وملاعق صغيرة في دروج طاولة

المطبخ، ومما يدعو للعجب، ريش دجاجة كأن طفلاً صغيراً كان يجمعه فيما مضى.

ظل برشت صامتاً أمام نافذة يتأمل أشجار الدردار. تغير العالم، لم يبق في ألمانيا سوى مدن مفتوحة على كل الرياح وبعض الإرادات الطيبة. عادت ماريا تحمل طبقاً أزرق.

ـ أنظر ما أجمله...

أجاب برشت بإبهام:

ـ جميل جداً.

ـ من كان يسكن في هذا البيت من قبل؟

ـ من قبل ماذا؟

ـ من قبلنا.

كرَّر: ـ من قبلنا؟

أشعل سيجاره:

ـ حثالة نازية بلا شك.

دهشت ماريا لهذه الملاحظة. قالها برتولد برشت وراح فوراً يخبط على الزجاج ليلفت انتباه أحدهم كان يتجول في الحديقة.

فجأة، بهتت فترة العصر، واكتنف ماريا مجرد شعور بالتحلل. كانت غير مفيدة، ليست في محلها، ثوباً يتدلى على مشجب. تسمع كلاماً، ترى أغراضاً، تتجول، ولكن كل شيء تعمه الفوضى، ولو طلب إليها أن تفصح عن شعورها، لاعتبرت نفسها مثل كائن يهيم في عالم بدون قوام.

لاحظ برشت أنها شاحبة. فاجتاحه دفق من الحنان حين رآها في غاية الهشاشة، في غاية العزلة، هناك أمام النافذة. وافاها وهي تضع حذاءها الأيسر في شعاع نور كما لتختبر متانته.

ـ ما الخطب؟

طبع شفتيه على ياقة قميصها.

ـ لست أمام محكمة يا ماريا!...

لاحقاً، شربا الشاي بعد أن عثرا على غلاية ترسَّب فيها الكلس.

ظل برشت معتمراً قبعته. شعرت ماريا أنها منجرفة بسبب أحداث تستضعفها. وكان هو يفكر بأنه وقع على ممثلة معقدة. أحس كلاهما بالبرد، فتوجها إلى مقهى معزول قريب من محطة فريدريششتراسي، من تلك الأماكن الكئيبة التي تحتوي على طاولة مستديرة كبيرة واحدة، مغطاة بمفرش ناصع البياض. كان هذا البياض يحمل رسالة سرية.

كان المكان حزيناً ومعزياً بموقده الذي يشخر. أخرج برشت من معطفه قلم حبر ورزمة من الأوراق، ورسم دائرة: كان من جديد مع أنتيغونته. نظرت ماريا إلى يده تحدِّد نطاق الأداء. في مدينة مدمرة، ثمة يد ترسم، بمعزل عن أي شيء آخر. قلم برشت يمضي وئيداً ويرسم خطوطاً موازية تبين أنها أعمدة؛ ظل القلم معلقاً. قال برشت:

ـ كاسبار نيهير سوف يعرف كيف يرسم جماجم الخيول، أنا لا أعرف.

ثم شرب الشاي، لم ينتظر أن تشرب ماريا شايها وقال:

ـ لدينا موعد في المسرح القومي...

كان البرد فظيعاً في الخارج ولكن ماريا سعيدة لأنها لم تعد جالسة في القاعة الصغيرة التي تعبق بدخان السيجار.

تمر قوافل من الشاحنات السوفياتية ثم منعطفات، قناة مائية، ظلال، عربات جر، مكب للأنقاض، هائل. انكمش المساء ببطء، أرعدت السماء رعدةً واحدة، فخرق صوت الرعد سماء المدينة. تمهَّل برشت وأوقف السيارة أمام مدخل باحة نجت تقريباً من الدمار. لمح بعض المعاطف أمام مصطلى. كانت امرأة تلوِّح بقطعة من الورق المقوى لتبعد الدخان الحار وتجعل الجمر يتوهج.

قال برشت: ـ أنظري إلى هؤلاء المساكين، أنظري إليهم،

أنظري إليهم!... لاجئون في بلدهم، لاجئون في حياتهم القذرة، يكادون يصبحون غرباء عن أنفسهم... إنهم ألمان، يتكلمون لغتي... ليس أمراً بسيطاً النطق بلغة بهذا الجمال، وهم يجهلون مدى جمالها...في مسرحي، سوف يستعيدون لغتهم على الأقل...

وانطلق بالسيارة مجدداً.

على مقربة من غلينيكي، تعرضا لتدقيق روتيني عادي للغاية يقوم به بعض الجنود السوفيات. كان ملازم روسي يترجم من الألمانية إلى الروسية ما يقوله برشت، ومن الروسية إلى الألمانية ما يقوله هو أيضاً. لاحظت ماريا أن الألمانية تتدنى لدى ترجمتها إلى الروسية وتتحول إلى رطانة خفير. كانت النظرة المنقبة للجندي السوفياتي الذي يدقق في محتوى السيارة، والعناية الفائقة التي يبديها الملازم لمقارنة أوراق سيارة الستير مع لوحة الأرقام، عوضاً عن إزعاج برشت، تشيع في نفسه المرح، كأنه يشعر بالحماية بفضل هؤلاء الجنود الشرطة. ولكن هذا التدقيق ذكر ماريا بتدقيقات أخرى، لا سيما حين دخل والدها، في مسرح فايس الصغير، مقصورة ابنته لينتزع سلسلتها الذهبية والصليب الذي يتأرجح منها.

بعد عودته من الفيلا الكبيرة في باد فوسلاو قرابة منتصف الليل، داهم غرفة ماريا، وقلب مرتبتها، ورمى بدروج صوانها على السجادة، في نوبة هستيرية، بحثاً عن الكتاب المقدس، ومجلدات أناشيد هايني. زعق بأنه ما عاد يطيق أن تكون لديه ابنة "كا...كا... كا... ثوليكية"، مثل "أمها المتدينة البلهاء"، ثم سحق وجه ماريا بين يديه. أرغمها على النظر إلى نفسها في المرآة وسألها إن كانت تشبه قديسة أم تشبه بالأحرى عاهرة. ثم، وبحركة مسرحية، رمى بكتاب القداس وبسبحة صغيرة في المرحاض، وأعلن أنه لن يقبل إطلاقاً أن تعيش ابنته راكعة تتمتم أمثولات يعتبر فيها الجنس البشري قطيعاً يثغو من البلهاء المستعدين للاقتياد إلى المسلخ.

أجل، فيما كان الروس يدققون في أوراقهما الثبوتية، ويتمهلون لدى قيامهم بذلك، كانت ماريا تستحضر تلك النوبة الهستيرية الأبوية، والتقويم المتدلي قرب شفّاطة الهواء في المطبخ، فوق المدفأة القديمة، وقد شطبت منه الأعياد الكاثوليكية بغضب بقلم أحمر عريض.

بذلك الأب الذي كان يريد أن يلغي كل ما يذكره بالعالم النسائي، والوصايا العشر، والدعوات إلى التحلي بالفضيلة وفعل الخير. حين انطلق برشت بالسيارة، سأل ماريا إذا كانت ترغب بلعب الشطرنج. كانت لا ترغب بذلك إطلاقاً. تستحضر همجية والدها والساعتين اللتين أمضتهما تبكي في الحمام، كما لو أن رقة العالم وصلابته اختفيتا مع ما ألقاه في المرحاض.

6

أحياناً، بعد التمارين على مسرحية 'أنتيغونا'، كان برشت يريض ساقيه سيراً باتجاه متحف ميركيش. يتأمل تحولات الحديقة التي يجتازها، بأوراقها الغضة والحامضة، ودروبها الظليلة، وأغصانها المكسورة. يرى أن تحول المجتمع لا بد أن يكون فعلاً مبهجاً بقدر بهجة تحول الطبيعة في كل فصل من الفصول.

تذكر الدرب التي كان يحبها في سفندبورغ، جنوب الدانمرك، بأوصالها المتهالكة التي تقود إلى شاطىء مسّدته الريح، وغموض جمال الكثبان. سنوات المنفى الأولى، بين عامي 1933 و1939.

كان يحتمي في منحدر ويمضغ عشبةً. تقبل غيمة، تلوّن قسماً من البحر باللون البنفسجي؛ هدير محرك حافلة بعيداً ثم العبور الشديد

البطء لغيوم أخرى آتية من بحر البلطيق؛ فراشات فتية تلهو وتتطاير وسط باقات الحَوْلق. نوارس تزعق حول رزمة من الريش المبعثر بسبب الريح. السماء أكثر رحابةً، نقية، تعلن عن تبدل الطقس...

يذكر الأشهر الأولى في منفاه الدانمركي. انطبعت بحدثين سعيدين: شراء بيت جميل مسقوف بالقصب، أمام شاطىء قرية سفندبورغ، وبشكل خاص، تلك السنة التي تعرف خلالها على روث برلاو المتوهجة، زوجة صناعي ثري من كوبنهاغن أنشأ مسرحاً عمالياً شيوعياً. كانت مرحلة الأمسيات وسط أشجار الصنوبر، وزعيق الأطفال، وتبادل الأنخاب، والمائدة الكبيرة المصنوعة من خشب السنديان على العشب، و"الشعوب الصديقة"، والأصدقاء الفنانين العائدين من موسكو، والأغاني المخمورة. على الرمل ووسط الرياح، غنى أغنية وهو يعزف على الغيتار، احتسى الشنابس تحت شجرة خوخ، رفع ثوب تلك السمراء الفاتنة، وسحب بدون اكتراث حمَّالة نهديها.

كانت هيلين فايغل تطهو مربى الخوخ وتثابر على صنع الحلوى متناسية وجود روث. برشت يدفعها برفق إلى جذع شجرة. يمارسان الحب وسط روائح الصمغ ثم يثرثران. عم يثرثران؟ عن هتلر وزمرته. في برلين، يدور الحديث حول السلام إنما يكفي أن يرى المرء مداخن مصانع "كروب" للصلب، وآلاف الأطنان من الخرسانة تسكب وسط الحقول لشق الطرقات السريعة، يكفي أن يرى المرء المعامل التي تُجمع فيها أجنحة طائرات "شتوكاس" ليدرك أن الحرب ستكون طويلة بقدر الشجاعة الأدبية لبرشت الذي كان يكتب كل صباح قرب موقد يشخر. يكتب قصائد ـ مناشير، يلحن أناشيد ألمانية على غيتاره.

أمام هذه الحرب، أصبح برشت بطلاً بفضل ذهنه المتوقد، وعباراته المضحكة، ونهمه الجنسي، وأسلوبه في إصدار صرير من

المراتب بين سباحتين، وسترته الجلدية السوداء، وقميصه الرمادي، ونزهاته بالسيارة وسط الأعشاب الرحبة بمحاذاة الشاطىء.

كان هتلر يعلن، ويزعق، ويروض شعبه، بوتيرة أسرع فأسرع، فيما برشت يفرقع آلته الكاتبة بقصائد ـ رشاشات. وأخيراً، أزفت المعركة الكبرى. العظمى، المذهلة، الأسلوب غير المسبوق في سقسقة اللغة الألمانية لوقف المواكب والعروض العسكرية واللوحات الدعائية وأوامر النازيين التي تخرق صمت الملاعب.

برشت، في الصباح، يستحم بالصابون، عاري الصدر، يحدث روث برلاو عن السبيل لرص صفوف الطبقة العاملة من أجل مواجهة "تلك الزمرة من المجرمين".

بعد الظهر، التقاط الصور أمام المدخل، في السيارة، قرب شجرة الخوخ، أمام المائدة في الحديقة. روث برلاو تمشي بكعبيها الرفيعين في مكتب المعلم وهيلين فايغل ترفع الأطباق عن المائدة خارجاً. برشت يتكلم، بقبعة المتسكع على طرف وجهه، وسحنته الرعناء، ولغته المضطرمة. برشت يبول على الجمر في إحدى زوايا الحديقة. سوف يخمد النازية مثل هذه الجمرات بمجرد أن يفتح دكته. تلك هي التصريحات التي يحلو له أن يدلي بها أمام نسائه. وهن، بين الاستمتاع والذهول والقلق، يتساءلن إن لم تكن النازية الظرف المؤاتي والمناسبة التي ينتظرها للتعبير عن مدى ذكائه.

غالباً ما يتحمس في المساء. ينفجر ضاحكاً، ينوء على ضيوفه بكلامه اللاذع، يجيل على مستمعيه نظرته الثاقبة، وبنبرة خالية من أي تعبير، يتلو نداءات وخطابات عمالية، نصاً لا ينتهي عن ضرورة الدعاية، يزعق ليسحق القداس النازي المقدس. لاحقاً، يتسلل خلف المنزل، يدخل عبر فرجة في الأجمة لموافاة روث برلاو. تنتظره في السيارة وقد حلّت أزرار قميصها.

ألن تكنس عدوى الفرح الأرضي وغبار قصائده وألقها هتلر ذاك الذي كان يلقبه "الدهّان" وأتباعه الحمقى؟ كان يرمي بخطاباته المطبوعة على الآلة الكاتبة من خلف سطح منزله القصبي، فتتناثر في الهواء، تحملها الغيوم البلطيقية المديدة والهادئة حتى الإتحاد السوفياتي.

سوف تكشح رياح قريحته النتانة البنية. كان ذلك بسيطاً، حتمياً، بدهياً.

حين يعود إلى المنزل الفسيح القارص على البحيرة البيضاء، يسمع ماريا. ترتب الغسيل ثم يفتح الباب إذ يخيم الصمت. يلمح ماريا نائمة أو تتظاهر بالنوم .

يغلي برشت لنفسه بعض الأعشاب في المطبخ. يعود إلى غرفته حيث الهواء أكثر برودة. يستلقي على الأغطية. الستارة المطرزة بالشراريب، المدفأة الرخامية، تصاميم مسرحه، ملاحظاته حول مسرحيتي أنتيغونا والإبريق المكسور لكلايست، الدفاتر، الأقلام المبرية بعناية. كل تلك الملاحظات التي حرصت ماريا على تصويرها سراً لحساب هانز ترو.

الإنعكاسات الملتمعة للقنديل الصغير على مقدمة خشب السرير المطلي باللك الأبيض. الصوت المتثاقل والعميق لجرس يذكره بأن سفوبوشتراند كانت شبه جزيرة، تعوم، بصورة غير قابلة للمراجعة، في رصانتها اللاهوتية...

تقرع ماريا أحياناً الباب المزدوج أو بالأحرى تحكه حكاً طفيفاً. تبقى آلة "زيركو" للتصوير التي تستعملها ماريا للتجسس على برشت مختبئة تحت الطبقات الصوفية في قعرحقيبة.

7

منذ النجاح المذهل لمسرحية الأم شجاعة في كانون الثاني/ جانفي 1949، بادر هانز ترو إلى تكليف تيو بيلا بمراقبة نادي النورس تحديداً، النادي السوفياتي ـ الألماني الذي يضم كذلك مكاتب هيلين فايغل. كان تيو بيلا يستجوب بمظهر غير مريب (حسب اعتقاده) النادلات والطهاة والدهانين بل وصانع الأقفال الذي يزيت الأقفال الجديدة في مكتب هيلين فايغل. يطرح الأسئلة بسماجة، يضع في جيوبه قطع السكر المهملة، يطالب السمكري بتنظيف مغسلة تراءى له أن ماريا ترمي فيها ملاحظات حرَّرتها في عجالة على ورق المراحيض.

كان الجميع يلاحظون سماجته ويرتابون من ذلك الأسمر القصير القامة، المتين البنية، والرشيق الحركة، الذي يهدد أي خادمة "بفضح ماضيها النازي أمام محكمة الشعب".

كان هانز يتسلى بابن بائع فلين الغابة السوداء الذي أمضى نصف الحرب داخل مطبخ غواصة تجوب المحيط الأطلسي. كان تيو لا يتحلى بأي حس بالروحانية السياسية، ولكنه أثبت عن حسٍّ وشايةٍ فريد إذ كان طاهياً متدرباً في مراهقته. كانت الوشاية لديه مرضاً: فهو يشك بكل الناس، يقارب بين تفاصيل لا علاقة لأحدها بالآخر، وبحجة "العدالة الطبقية"، يحيط كل شخص بريبة عضوية، عبثية، مباغتة. والغريب في الأمر أنه كان يعد التقارير بدقة تقنية عالية، ويسوق عن غير قصد قرائن تسمح لهانز ترو بالتوصل إلى استنتاجات لتصنيف الكثير من القضايا.

كره تيو بيلا الممثلين المسرحيين، لا سيما أولئك الذين يتمتعتون بالشعبية، ويتعاطون بخفة مع كل الأمور، ويتحدثون عن الجنس بفظاظة، ولا يعانون، كما هو واضح، من الجوع مثل بقية المواطنين.

كان هو، تيو بيلا، بين مهمتي مراقبة، يغرز شوكته في قطعة لحم أو في بضعة أوراق كرنب متبقية في قعر قدر حالما يدير الطهاة في نادي النورس ظهرهم. على هذا النحو، كان يجرجر قامته المكتنزة، إما لتغميس إصبعه في صلصة، أو للبقاء وراء ستار عازل، متظاهراً بمطالعة الجريدة، مصغياً لما يقال على المائدة القريبة. كان يدوّن كل ما تقوله روث برلاو عن اعتزام برشت إخراج مسرحية الأستاذ الخصوصي للينز وإسناد دور مميز فيها لماريا. وقد لمحت كذلك إلى فلاديمير سيميونوف، القائد السوفياتي للمنطقة، الذي تحمس أشد الحماس لأداء فايغل في الأم شجاعة، فقرر أن يزيد أجرها عن كل عرض مسرحي. وكذلك، كان تيو بيلا يعلم أن سيميونوف وقَّع بيده السمينة على زيادة نفقات تشغيل فرقة برلينر أنسامبل المسرحية.

توجه بيلا إلى مكاتب شومانشتراسي. ثم قصد بهو المسرح الأمبراطوري القديم لملاقاة هانز ترو. أسرَّ له بغموض أن "الملك الصغير برشت سوف يصبح النسر الأمبراطوري للنظام". كان هانز ترو يتصفح جريدة ألمانيا الجديدة وهو يسأل بيلا عن مغزى تشبيهاته المستوحاة من الطيور. كان هو لا يكترث سواءً أكان بريشت دغناشاً، شرشوراً أم حسوناً.

مرة أخرى، لاحظ هانز ترو أن تيو بيلا يملأ الهواء حوله برائحة طعام، خفية وحلوة. أسوأ وباء يصيب جهاز استخبارات هو اختيار الأغبياء ظناً أنهم أكثر قرباً من أغلبية الناس، لأنهم يفكرون ويتصرفون مثل أغبى الناس. رأى هانز أن النظام ينهار على هذا النحو. فالبروسي الأصيل لا يقبل أن يعمل برفقة ابن بائع فلين الغابة

السوداء. ولكنه ظل يبتسم وأظهر بعض الامتنان لئلا يثبط همة معاونه، أو ـ الأسوأ من ذلك ـ يخنق حماسه الطبيعي للوشاية.

ذلك المساء، في بهو المسرح الأمبراطوري القديم، تجمع الكثير من الأطفال، وبعض العمال، قرب السلم الرئيسي، لا سيما بعض البيروقراطيين. كانوا متشابهين: يرتدون ثياباً داكنة ومعاطف رديئة الخياطة. من أولئك الأشخاص الذين ينفقون وقتهم في منح التصاريح أو الحصول عليها، كل البيروقراطية التي تتطفل على العمل الفني. سحناتهم أشبه بسحنات الأساتذة. يتحدثون عن مساوىء المركنتيلية وميل العمال للفكاهة الخالصة. رجال بأحناك مربعة وتسريحات عسكرية، نساء من البرجوازية الصغيرة يرمقن بنظرات مشدوهة الزخارف الأمبراطورية الذهبية. يأتون جميعاً لتجديد حيويتهم. ببطء، يرتقون درجات السلم، مخلفين وراءهم آثار نعال مبللة على السجادة. ثيابهم غير مكوية بعناية وأحاديثهم تدور حول عجز نظام التموين بالمواد الغذائية.

عاد هانز ترو حاملاً بيده بطاقتين. جلسا في الصف الثامن الجانبي. لمح هانز هيللا فووليجوكي البدينة التي استقبلت برشت في منزلها الفنلندي. سحنة مستديرة، ضفيرة سميكة من الشعر الأشقر المجدولة حلزونياً في أعلى الرأس، فروة حول عنقها؛ كانت تنحني باستمرار من على شرفة مقصورتها لترى من ذاك الذي يلبس قميصاً أحمر، هناك، في الصف الأول. كان الممثل ليونارد شتيكل الذي سوف يؤدي قريباً دور بونتيلا، المسرحية التي كتبها برشت تحديداً عندها ومعها...

أفسح هانز ترو المجال لتيو بيلا من أجل الجلوس على الأريكة. أما هو، هانز، فجلس على المقعد المتحرك الخفيض الذي يصدر صريراً. انطفأت الأنوار، وكذلك الأحاديث الجانبية. ضوء الخشبة ينير

مشهداً قمرياً. سهب. عربة الأم شجاعة وكذلك جرادل ومواعين تتصادم.

همس تيو: ـ لا يجوز الظهور هكذا على خشبة المسرح. ما أغبى ذلك!

ـ أصمت...

بعد ساعتين ونصف الساعة، غادرا المسرح القومي، في حين كانت مجموعات كثيرة تثرثر على الرصيف.

قال تيو بيلا: ـ إنها ساحرة على الخشبة، كأنها صبية في السابعة عشرة، كأنها مراهقة.

كان يتحدث عن ماريا أيش.

أشعل هانز سيجاراً صغيراً. تساءل عن الفرق بين ممثلة وعاهرة وابنة مصرفي ومدرِّسة. أصابه وجه ماريا المتبرِّج بالاضطراب. تساءل إن كان الممثلون يفسدون في نهاية المطاف بسبب الأجور التي يتقاضونها، والأوسمة، والإطراءات، والمعجبين. كان هؤلاء الممثلون يتلقون الدعوات من كل حدب وصوب مثل الأطفال في عيد الميلاد. تذكر أن أحدهم انتحر برصاصة أطلقها من مسدس وضعه في فمه أثناء التمارين على مسرحية الأم شجاعة في ميونيخ. قال تيو بيلا:

ـ هذه الفرقة المسرحية، برلينر أنسامبل، تلوح كمصحٍّ للمجانين...

لم يعلق هانز ترو الذي كانت تهدهده أفكار ساخرة، وتأمل دخان سيجاره الصغير.

تابع تيو بيلا: ـ وكيف يحيون الجمهور حين يعودون في النهاية إلى مقدمة المسرح...

ـ أجل...

ـ يحيون الجمهور، وقد انثنت أجسادهم، والتبرج على وجوههم، مشوهين...مصح للمجانين...كأنهم دمى... مرضى...

علّق هانز الذي كان يحلو له أن يترك بيلا يطلق العنان لفكره الجامح والمسدود: ـ ها... حقاً؟

ـ ألا توافقني الرأي؟

ـ كلا.

ـ يحيون الجمهور، وتتشابك أيديهم...الإفريز مضاء أمامهم كأن الثلج ينيرهم. مصح للمجانين، أشباح. تتشابك أيديهم، يتقدمون ويتراجعون، ويتقدمون ويتبادلون الابتسامات ويبادلون الابتسامات... مصح للمجانين... مجانين.

قال هانز مبتسماً: ـ ونحن مرضى.

لاحقاً، كان نهر هائل من السحب ينجرف برفق نحو مجلس الرايشتاغ. قال تيو: ـ كان أداء ماريا ممتازاً مع الرقيب الذي يقوم بالتجنيد.

أجاب هانز: ـ ممتاز.

ـ كانت مرحة، مرتاحة في أدائها...

ـ جداً...

راح تيو يشتم الهواء:

ـ إنها رائحة الغابة... الغابة في الربيع...

ـ أجل.

ـ رائحة نباتات الأحراج... رائحة طفولتي...

تابع تيو:

ـ حين ينثنون لتحية الجمهور، يلوحون كالدمى الميتة...ألستُ محقاً؟

قال هانز: ـ أجل، أنت محق.

ـ دمى متزوّقة ومضاءة تشخِّص الفلاحين والمعاونين وبنات الهوى... ذلك هو المسرح باختصار.

وضع هانز يده على كتف تيو المسترسل في الكلام.

ـ أصمت.

أصاخا السمع. ثمة صرير خفيف منتظم خلف مدينة ملاهي قديمة وراءها أشجار سندر. دار هانز حولها. كانت مجرد أرجوحة تئن في الهواء. حلقاتها الصدئة تصر حول محورها.

تابع تيو:

ـ حين كنت صبياً (كان هانز لا يطيق أن يسمعه يقول: "صبياً")، اصطحبني والدي لمشاهدة مسرحية فالنشتاين لشيلر في مبنى ملحق بمدرستي. كانت مسرحية فالنشتاين تتحدث عن صاحباتَ حانات وتروي قصصاً عن رقباء، ومعسكرات، وأباطرة، وجنود، وطبول ومزامير، وولائم، ومشنوقين، طبل وشنق، أهذا هو المسرح الألماني؟ موائد وجنود وعاهرات وصاحبات حانات. كان ذلك موجوداً أصلاً في مسرح شيلر... أهذا هو المسرح فقط؟ أيتام، ومشنوقون. إبريق من القصدير، ضباط يجندون ويقرصون مؤخرات العاهرات؟ إذا كان المسرح الألماني كذلك لقرون خلت... فسحقاً...

قال هانز: ـ لا، إنه ليس كذلك.

كان هانز يمشي منذ بعض الوقت بدون أن يعير ثرثرة تيو الكثير من الإنتباه. تذكره تلك الجعجعة المتواصلة بمهمة تقشير البطاطا أمام منزل أهله في فيتنبورغ. الطاهية ليزبث تغرق هانز الصغير بكل ما يخطر ببالها. تقشير البطاطا يشحذ خيالها الجامح. تستبق مستقبل العالم، وتحلم بآلات ضخمة لتقشير البطاطا والجزر واللفت؛ لتحرير البشر من مشقة تقشير الخضار. وينسحب كلامها على الدجاج المنتوف آلياً، والدواجن التي تتفرغ أحشاؤها في سلسلة التصنيع، الخدمة المنزلية لبيت ترو الذي سيعيش بمأمن من الجوع لقرون وقرون، آمين!

في الأعماق، كان بيلا، مثل تلك الطاهية، يطلق العنان لمخيلته العصامية. تصريحاته الكثيرة وغالباً العادية وفرضياته الملتوية التي لا

تنتهي تشبه تلك القشور المتراكمة في أوراق الجرائد. أما والد هانز المستغرق ليلاً نهاراً في دراسة وثائق قانونية بمكتبه الفسيح الذي يطل على حقول البطاطا، فقد فقد القدرة على الكلام في الجامعة. كما لو أن آجر المكتبات القوطي قد جعله عاجزاً عن الكلام، حزيناً حزناً لا قرار له. تقوقع والد هانز حول اجترارات سرية، صار يأنف الحوار الإنساني العادي. يكتفي بتفوه كلمات فقيرة وقليلة على المائدة. ويطلب من هانز، صغير العائلة، أن يتلو سلسلة تواريخ حرب الثلاثين عاماً.

تذكر هانز نوبات صمت والده، بعضها مهيب وبعضها الآخر كئيب وكأن الأمر يتعلق بلوم الأسرة على وجودها. القهقهات النادرة تأتي من المطبخ. كانت المائدة والكراسي والموقد والشمس البيضاء الشبحية فوق الحقول العارية تجيد التواصل مع ذلك الوالد أفضل من أسرته. يتناول حساءه البارد ولا يطيق في الأدب سوى الظلال الحرجية المعتمة في أنشودة نيبيلونغن. كان يفرض على بيته مناخ المحكمة لحظة إصدارالحكم.

لطالما تساءل هانز كيف تمكن والده من خلع سرواله وإنجاب ثلاثة أولاد من زوجته. ذلك الوالد الذي يؤجل كل نقاش، ويتأمل، عبر النافذة، حقول البطاطا في مكلمبورغ. هل كان يستبق مشهد عناصر وحدات الهجوم النازية يجتاحون سلم السنديان الكبير ويخبطون بجزماتهم العسكرية أرضية الرواق ثم يقتحمون مكتبه وينزعون، من بين أغراض أخرى، لوحة الدينونة المعلقة بين صوانين؟ بنظرته المسمَّرة على أشجار الحور، هل كان يقرأ عند خط الأفق متاعب الرايش الثالث؟ هل كان يرى في السماء الواطئة عشرات من طائرات شتوكاس تحلق وهي تزأر بين الغيوم، بأبدانها الحديدية البراقة؟ هل كان يرى كل الجنود الحديديين الذين يلهو بهم ابنه هانز يسقطون في ثلج ستالينغراد؟ هل كان يفطن إلى جحيم

أجهزة الاستخبارات الذي ينسل خلسة؟ مئات الرفوف التي تمتد على طول الأروقة، الإدارة التي لا تكل ولا تمل لحركات البشر وأفعالهم، البحث المحموم عن الخيانة الإيديولوجية، التسكع الشيطاني في نتانة التقارير حول التنظيمات السياسية... هذا ما كان يشغل بال هانز ترو فيما تيو بيلا يجعجع بلا هوادة.

يتحدث عن أولئك الممثلين المغرورين الذين "لا تنبهر بطةٌ بأدائهم".

قال تيو: ـ هل ترى؟ هل ترى؟ منذ شيلر وصولاً إلى برشت، هل تطوّرنا؟ ما زلنا في المعسكر نفسه... حرب الثلاثين عاماً نفسها...؟ مع الرقباء المجندين إياهم، والعاهرات إياهن...

ابتسم هانز وهو يجلس على مقعد عمومي: ـ أجل.

أخرج بطاقات المسرح وفتّتها على الثلج.

ـ أباريق من القصدير وصفعات على مؤخرات صاحبات الحانات...المسرح هو فن الفوضى الذي ينظر إلى فن النظام... ألا توافقني الرأي يا هانز؟

ـ لا، لا أوافقك الرأي.

نزع تيو بيلا وشاحه الصوفي الملفوف حول رقبته، فتح ياقته ثم نفض الثلج عن معطفه وتابع الكلام:

ـ ارتداء الأزياء، خلعها، الكذب، التبرج، إزالة التبرج، الكذب. خلع الأزياء، إزالة التبرج، الثرثرة، التلاوة، التأدية، التبرج مجدداً، تكرار الجملة البلهاء نفسها... يا لهذا العناء! إلقاء التحية كالدمى الجنائزية التي تسعى لترويع النظارة في الصف الأمامي بتلك الإضاءة السفلية... ما رأيك؟ أهذه حياة؟ الممثلون يروِّعون المشاهدين...

قال هانز: ـ إنهم يضحكونهم أيضاً.

ـ أحقاً؟ ترويع الناس؟ إضحاكهم؟ إلقاء التحية، الإضحاك،

الترويع، هل ترى أنها حياة تلك الحياة... كل شيء فيها زائف، لا بد أن الأمور تختلط عليهم بين الإضحاك والكذب، نثرهم، الشعر، أفكارهم، أقوالهم. حياتهم الخاصة، أين هي؟ لا بد أنهم يخلطون كل الأمور، أليس كذلك؟...

ـ برشت لا يخلط شيئاً، صدِّقني...

ـ ولكن ماذا عن ماريا؟ ماريا التي تخصنا؟...

قال هانز الذي وضع عقب سيجاره على لوح من ألواح المقعد:

ـ لا أدري.

ـ لا بد أن الأمور تختلط عليهم وأنهم يروِّعون ويضحكون أنفسهم بدون أن يعرفوا لماذا أو كيف... ألا توافقني الرأي يا هانز؟

قال هانز نافخاً على جمر سيجاره: لا، ربما...أن...

أضاف تيو: ـ إنهم محترفون في التجنيد.

ثم نهض ونفض معطفه:

ـ لو ترك الأمر لي، لرميتهم في السجن. لسنا بحاجة إليهم... لذلك نحن هنا...

قال هانز: ـ لا، لسنا هنا لهذه الغاية...

لاحقاً، لما انتهى بيلا من التذمر، وكفَّ هانز عن اللف والدوران، نهض الرجلان، وانقضت الدقائق؛ فسارا نحو البحيرة التي تتسع في تلك البقعة.

8

حين لم يسجل برشت إسم ماريا أيش في التمارين على مسرحية أنتيغونا، كانت هي ذاهبة إلى القطاع الأميركي. بفضل تصريح المرور

المشطوب باللون الأحمر الذي زوَّدها به هانز ترو، صار بإمكانها موافاة ابنتها لوتي. قطارات مكتظة، قوارب متتالية على البحيرة، عربات محملة بالبطاطا، سحب من الدخان الأسود تتصاعد من مداخن المصانع، أشخاص صم وبكم يبيعون الأناجيل، أرامل يعرضن للبيع الأحذية الملمعة لأزواجهن الراحلين، نداءات بائع صحف يعرض بعض السكاكر: برلين تلك كانت تمر أمامها، مبرقشة وغنية.

ركبت ماريا الترامات التي تجتاز حي شتيغليتز ثم ليشترفلدي نحو بحيرة فانزي. ظلال متشعبة على طول أسوار لا تنتهي من قرميد الثكنات القديمة، غابة من أشجار الدردار استباحتها الأرانب البرية، أشجار صنوبر برية يتكون منها الصمت في بحيرة فانزي.

ترجَّلت ماريا من الترام، وحثت الخطى، مختصرةً الطريق عبر الأراضي الرملية ومرت أمام الفيلات التي اجتاحتها الأشواك. دارت حول حوض سباحة قديم ممتلىء بالمياه الآسنة، سمعت قفزة ضفدعة فيما كانت بعض العظايات تتشمس على الحجارة فوق الدرجات أثناء أيام الصحو.

تعيش والدة ماريا، لينا زورن التي ترعى لوتي، في فيلا كبيرة مصفرة باحتها رملية تتوزع فيها الأعمدة وأعشاش عصافير في الزوايا. الشيء الوحيد الذي يلوح حياً حول هذا المبنى ذي المصاريع المقشورة الطلاء كان أعشاب مرج نباتاته حبلى ببراعم أزهار الليلك.

داخل الفيلا، يشبه البهو مقطورة سكة حديد بستائره الثقيلة ومقاعده المستعارة من محطة القطار، ونوافذه الزجاجية المدورة، ومواعينه القصديرية المكومة على صوان سفرة من الطراز البسماركي. كانت الجدة تطوف في ثوبها الرمادي وقد غطت كتفيها بوشاح مائل إلى السواد، مهدَّب الأطراف، وحولها أقداح الوسكي. تتجول وفي

يدها محفظة نقودها. تتذمر من ارتفاع سعر البنسلين. لا تنهض من مقعدها إلا لمناداة لوتي التي تلهو خارجاً.

قلما تتبادل الأم والإبنة الكلام. تتفاديان الخوض في الماضي. ردَّدت لينا أمام ابنتها: "أجل! أجل! أنت على صواب، كوني في صف الأقوى! أعلم أنك مناهضة للفاشية من الطراز الأول! أعلم! مناهضة للفاشية من الطراز الرفيع! لم يلاحظ ذلك لا أبوك ولا زوجك! ولا أنا...". تنهدت، ووضعت يديها (اليسرى لا تتخلى عن محفظة النقود) على فخذيها، كأن هذا التصريح أنهكها، ثم ظلت ملتصقة بالظهر الجلدي لمقعدها، متسمرة، كأن طاحونة ذكرياتها توقفت عند الثامن من أيار/ماي 1945 الساعة الثامنة صباحاً، حين سمعت عبر الراديو أن ألمانيا النازية استسلمت بدون شروط.

منذ ذلك الحين وهي ترعى لوتي. تعتني بربوها، تعيد عد الأوراق النقدية المجعدة. تقتلع أحياناً صوراً فوتوغرافية لفيينا، من داخل المحفظة، مثل وثائق عن الزمن الغابر.

أعقب ذلك تناول الشاي في جو كئيب مع كعك البريتزل القاسي كالحجارة. في العتمة، كانت ثريا ملفوفة بقماش مظلة طائرة معلقة، مخيفة، شبحية فوق المائدة... ظهرت جارة وردية المحيا، عريضة ومزركشة، وراحت تغمر الطفلة بالقبلات، وتضمها وتدفنها تحت ملاطفاتها المبالغ بها. خيم الصمت حين سُكب الشاي.

سألت ماريا: ـ ونوبات الربو؟

أجابت أمها: ـ لا تعاني منها معي.

ساد الإحراج. هامت نظرة ماريا صوب المزهريات والخزفيات على أحد الرفوف. تلكأت على صورة فوتوغرافية قديمة، محاطة بإطار من الفضة الكامدة: وجهان ساخران، وجه ماريا ووجه زوجها بقبعته العسكرية وشعره القصير. قالت في سرِّها إن ثمة فترة انقضت، هانئة وعابثة ؛ الآن، تجهم كل شيء وأصبح مبهماً، منعدم الجاذبية.

ـ تعملين مع برشت؟...

ـ أجل.

أعربت الجارة عن دهشتها: ـ ظننت أن ذلك الشخص قد مات!

ـ لا، لم يمت.

ـ لقد فر من البلاد منذ وقت طويل... كان شيوعياً...

انصرم حبل الحديث. نهض الجميع. قالت الجارة:

ـ أعرف واحدة لن تنام في ساعة متأخرة هذا المساء...

عند المدخل، بحثت عينا ماريا عن ابنتها. كانت الصغيرة تلهو في إحدى الزوايا. وحدة لوتي تتجلى بوضوح. اقتربت ماريا من الطفلة، قبلتها، ابتعدت، ثم انصرفت.

بعد عشر دقائق، وجدت ماريا نفسها في ترام متهالك يصدر صريراً، محرومة والحزن يغمرها. أصبحت غريبة عن حياتها.

فلاذت إلى مقهى أبيض ومقنطر في شارع فورملينغرشتراسي. كان الموقد الخزفي يشخر ويصدر برائق نور. طاولة ثقيلة من خشب السنديان... كوب من الجعة يتلألأ ثم يستعيد سكينته... يتيح لها هدوء المكان وصمته استعادة رباطة جأشها. انزلق وجهها وغفت.

كان صاحب المقهى يلقم الموقد أحياناً بقطعة من الحطب ويتأمل تلك المرأة الشابة الجميلة النائمة.

في الحلم، كانت ماريا تلهو في غابة فيينا. تقطف الزهور، ثم تخوض في أجمة. تهاجمها الزنابير وتلسعها. يختفي النحل مثل العناقيد الدبقة تحت قميصها.

حين انصرفت ماريا، أصابها الدوار: حولها أشخاص يتكلمون، سيارات تمر، معاطف تسير. استندت إلى بوابة. أعادت إليها شمس المساء الصفراء هدوءها.

9

في أواخر شهر تشرين الثاني/نوفمبر 1950، أثناء التمارين على مسرحية \أنتيغونا، لاحظت ماريا أيش أن الأجهزة الثقافية تكثر من المخابرات الهاتفية والزيارات والاستجوابات للممثلين. شعرت أن تقارير غريبة ترفع إلى الوزارة.

كان الرنين الحاد للهاتف يوقف التمارين، أو يرتعش الهاتف في أسفل سلم فيلا البحيرة البيضاء. صباح يوم أحد، في قاعة تمارين تقع بشارع راينهاردشتراسي، زيارة لأحد البيروقراطيين. يضع حداً للتمرين أو يطيح بجو البهجة التي أشاعها برشت. أولئك الذين يقومون بتمارين تليين (دوران بطيء حول القاعة، أقدام سريعة، سيقان مشدودة، أذرعة مبسوطة على شكل إكليل، ثم استرخاء) يتابعون تمارينهم إنما يختلسون النظر إلى الزائر الغريب.

يحتفظ عضو اللجنة الثقافية بقبعته في يده، معطفه المطري كئيب، ورقبته غليظة. يغلق بضجيج غطاء البيانو ويزيح جانباً مقطوعات ديساو. ثم يبتسم كما يبتسم الجاسوس، الأمر الذي يعني ـ وكان برشت يعلم ذلك ـ تقريراً مرفوعاً إلى مكتب ديمشيتز ونسخة منه إلى الرابطة الثقافية. وثائق مفبركة وملتوية لإدانة الاستهتار الجمالي والشكلي لفرقة برلينر أنسامبل ونخبويتها ورطانتها. يوصف برشت بأنه فنان مستهتر يتمتم خرافات ويقدم أمثلة مخزية من الصفاقة. يتكرر في التقرير للمرة الألف أن وزارة الثقافة تتوقع "فناً بروليتارياً راسخاً" يكون صحياً ومفيداً مثل طنجرة أو طنبر أو مطرقة. ولكن برشت يزوِّق، يستنتج، يثرثر، يبدي آراءً، يقول الشيء وعكسه بحجة

الجدلية. ذلك الرجل العنكليس يوحي بأنه يتحايل على الجميع رجالاً ونساءً. يطور لدى البعض عقدة تفوق. يكثر من الملاحظات الساخرة، يتكلم بصوت مرتفع وزاعق، يسخر من النقاشات النفسية التي يطالب بها الممثلون، يقتبس في كل لحظة شكسبير الذي يتماهى معه إلى حد الهوس. باختصار، كان يراوغ، ويتحلى بالأناقة الكافية للتهكم من المسرحيات المدرجة على البرنامج الرسمي، شارحاً بأن الأعمال العظيمة لا يكتب لها البقاء إلا بالإنتهاك لا بواسطة "إجلال يعلوه الغبار".

أدركت ماريا أن مكاتب الوزارة تعج بتقارير من وحي كتاب حسَّاد هم من كبار أعضاء الرابطة الثقافية. كانت هي نفسها لا تفقه شيئاً في بعض الأحيان، وتعتبر بعض محاضرات برشت عن المسرح الإغريقي مملة، مثل ذلك اليوم الذي استفاض فيه حول الفرق بين حقد آخيل على هكتور وحقد عامل على رب العمل.

في المساء، تتغير النبرة، وتتكرر التصرفات إياها: ينزع كنزة ماريا ويقتلع تنورتها.

فتشعر بالمهانة كأنها في معاينة طبية.

ثم تذيب ماريا أقراصاً في كوب ماء بسبب مشاكل القلب التي يعاني منها المعلم.

مساء يوم ثلاثاء، ذهب برشت وماريا لحضور أمسية في اتحاد الكتاب. حشد هائل. اقتربت هيلين فايغل من خلف برشت وهمست:

ـ يبدو أن ماريا أيش تحللت في الجو. تمرُّ وتتلاشى، تختفي وتعود؛ إنها مثل الشبح، محميتك الصغيرة، أنت تعيش مع شبح. أرجو ألا تخونك الذاكرة وتتذكر أين وضعتها، وألا تنسى أين اختفى تيار الهواء الفاتن خاصتك.

سألها برشت وهو يغرز بشوكته خيارة مخللة داخل شطيرته: ـ ألا تروق لك؟، ثم أضاف:

ـ ثمة من أبدى أمامي هذه الملاحظة.

ـ أية ملاحظة؟

ـ أن ماريا تلوح كتيارات الهواء وأنها سوف تختفي يوماً.

ملأ برشت طبقه بلحم مطبوخ، رأس عجل يحوي قطعاً غضروفية تتكسر تحت الأسنان؛ بودّه لو يكون بالبيجاما في المطبخ المبلط الكبير بفيلا البحيرة البيضاء يتأمل شعر روث برلاو يتوهج على كتفيها... ليس تلك المرأة العجوز التي أصبحت اليوم بل تلك الشابة الأسوجية عام 1941 وهي ترتدي المايوه المزين بمربعات حمراء وبيضاء؛ وتسبح بمرح في بحر البلطيق. ماريا فتاة شائقة ولكنها لا توازي روث...

اقترب أحدهم.

وضع برشت طبقه جانباً وأشعل سيجاراً. اقتيد إلى وسط الصالة. تساءل إن كان برجه يلائم موسكو. كان نيرون يحكمها...

قابل بدعابة بل بذكاء الأنخاب التي يشربها الحضور على شرفه. فعل ذلك بشكل خاص من أجل هيلين التي أصبحت شخصية شعبية وسعيدة. لم يشأ أن "يهدّ لها البيت"، حسب تعبيره، أو يثير قلقها، ولكن الأنباء الآتية من موسكو لا تدعو للتفاؤل بالفعل. الأوضاع تتدهور. سوف يطلب من مصمم الديكور أن يضيف خطاً طويلاً بريشة مغمّسة بالحبر الصيني الأسود. هكذا، بسرعة، بمثابة توقيع.

في يوم من الأيام، سوف يرحل إلى الصين ويسكن وادياً في قلب الجبل. بيت صغير، قرقعة آلته الكاتبة، الضباب في الوهاد التي تتراءى من المطبخ، صياح الديك. أحياناً، تصدر عنه زمجرة مقتضبة غير خبيثة وهو يطالع الصحف القادمة من ألمانيا. سوف يخط دائرة طبشورية، ويضع فيها ديكين وطفلاً، ثم يراقب ويزرر سترته. عصراً،

ينعم بقيلولة، يأكل كلى عجل، يقوم ببعض الإختزالات في قصيدة مسهبة، ثم يزور مشغل نجار صيني. يسير على نشارة الخشب. يختبر مكتبه الجديد، طاولة من الخشب الفاتح. قوائم كلب، عصافير الدوري، ستائر، كرسي مطبخ، لحم مطبوخ وجعة. قصائد مخطوطة بالحبر الصيني...

في الصيف، سوف يستحم في حوض من الطلاء الخزفي، ويغمس إصبعه في الفاكهة المطبوخة بالسكر ليتذوقها. توت العليق، إرهاق، نوم، قيل وقال. سوف يصفر لكلبه ثم يلعب لعبة الكعاب مع إبن النجار. طوال السهرة، سوف يتثاءب في الفناء، متأملاً شجر المُضَاض وسط الضباب، ويدخن سيجاراً.

هذا ما كان يجول في فكره فيما رئيس أكاديمية موسكو، سرجيي ما شابه، يمسك بيده، يحتجزها بين يديه، يتغنى باتحاد الشباب الحر...

أقبل صديق قديم يدعى رودولف برستل، رفيق دراسة مزعوم من رفاقه في مدرسة أوغزبورغ، يحمل طبقاً فيه لحم بقري بالصلصة. يهمس في أذنه:

ـ الطعام أولاً! الأخلاق ثانياً... ما قولك يا برتولد!... ما قولك؟...

كان لانغهوف وديمشيتز ببدلتيهما المتقنتي الخياطة يشبهان كاتبي عدل. زوجتاهما ترتديان ثوبين مريعين. في زاوية من القاعة، يقف أرنولد زفايغ ويوهانس بيشير اللذان حظيا بشرف حرق أعمالهما النثرية على يد رجال أمن نازيين مضرجي الوجوه، قصائد تحترق في ساحة معبدة محاطة بالقمصان البنية...

عاد الآخر، صديق الطفولة:

ـ هنا الأخلاق أولاً! الطعام ثانياً...، مشيراً بشوكته إلى محتوى طبقه .

تظاهر برشت بأن مجموعة من الشباب تناديه واصطنع البشاشة. طوَّق كتف طالبة بذراعه:

ـ لا تغيري دورك! إبتسمي! سوف أجد لك دوراً في مسرحية بونتيلا! هذا وعد من برشت!...

قبل أن تجيب الفتاة، كان المعلم قد مرَّر إصبعيه على ظهر ماريا يدغدغها هامساً: "الطعام أولاً! الأخلاق ثانياً!". على حين غرة، اجتاحه إحساس مبهم أمام هذا المجتمع الريفي، هذه الدوامة من الثياب الرمادية... كان هؤلاء الأشخاص يتميزون بالجمود الأكاديمي للبيروقراطية الجديدة في موسكو.

رفض أن يلقي كلمة، ثم ارتدى معطفه وتوجه نحو السيارة الرسمية. الإنعزال عن العالم والنوم في دوامة العدم. ثم صحَّح فكرته: العالم مدمَّر وجائع، فكيف أشكو من وجودي هنا؟

سأله السائق في أي ساعة يريد أن يقله في اليوم التالي. السابعة والنصف!... ثم استلقى في غرفته واستمع إلى أسطوانة 78 دورة كانت تسجيلاً لبرونو والتر أهداه إياه بول ديساو.

10

بعد مرور خمسة أيام على بدء التمارين العامة، صعد برشت إلى مقصورة ماريا. كانت تغسل ثيابها الداخلية في المغسلة الصغيرة. دار حولها ثم جلس في أريكة مخملية قانية مهذَّبة بزخرفات باروكية مذهبة.

ـ لست خفيفة بما فيه الكفاية يا ماريا.

كانت ماريا تفرك بالصابون صدريتها.

ـ هل تسدين لي خدمة؟

ظنت ماريا أن الأمر يتعلق بخدمة جنسية.

ولكن برشت تابع قائلاً:

ـ هل بوسعك أن تكوني أكثر خفةً؟

وأوضح لها:

ـ يبدو لي أنك قد تصبحين أكثر خفةً لو أقللت من حركات ذراعيك.

ـ أجل، بالتأكيد.

ران الصمت.

ـ هل تفهمين؟

أشعل بريشت سيجاراً، وكما هو الحال دائماً حين يشعر بالإحراج، لفَّ نفسه بالدخان واتخذ مظهراً متهكماً ومتكلفاً.

بادرته ماريا: ـ هلا تناولني المنشفة؟

ناولها برشت المنشفة.

ـ أكثر خفةً... مثل هذا الدخان... أكثر خفةً...

تأملت ماريا، تحت الضوء، ثيابها الداخلية وراحت تنشرها على السلك المعدني الذي يمتد من الحاجز العازل إلى رف القبعات.

تمتم برشت: ـ الإقلال منها، أليس كذلك؟

ـ فهمت.

خيمت لحظة صمت.

ـ لا داعي لأن تأخذي الأمر على هذا المحمل.

ـ آسفة.

أدار برشت سيجاره لينفض الرماد في طبق القصدير الذي يصلح كمنفضة.

ـ أبدى أحدهم لي هذه الملاحظة.

ـ من؟

ـ هيلين فايغل.

ـ هل أنت متأكدة؟

ـ كل التأكيد!

كان برشت جائعاً، يرغب بتناول دهن الخنزير. ماريا تلبس تنورتها الجوخية الحمراء القانية. لما علق سحّابها، نهض برشت ليساعدها على إغلاقه.

ـ زاد وزنك!

أجابت: ـ كلا.

كانت تزرِّر قميصها حين لاحظت أن زراً مصدَّفاً يكاد يسقط أرضاً. شدت على الخيط فهوى الزر على الكرسي، وثب وتدحرج تحت أريكة برشت الذي انحنى قليلاً ليرى أين صار.

ركعت ماريا لتبحث عنه.

ـ هل تريدين أن أساعدك...

ـ لا، شكراً. سوف أتدبر أمري.

ـ ألا تريدين أن أنادي وصيفة؟

ـ لا، شكراً.

مجدداً الصمت.

قال برشت: ـ كنت أمزح. أعذريني.

خطر له أنه لا بد من إضافة خط طويل أسود إلى الستارة القطنية الطويلة العاجية اللون التي تسد خلفية المسرح. ماريا تثبت الزر، تشد بعصبية على الإبرة والخيط.

أخيراً، عضت على الخيط بأسنانها، وأكملت تزرير قميصها ورمقت برشت يطفىء سيجاره ساحقاً إياه بإصرار. شاخ برشت. ترهلت شفته السفلى بعض الشيء. كانت رخوة. حلق ذقنه ونسي أن يحلق زاوية تحت الأذن اليسرى.

ـ آسف لما قلته للتو.

ـ لم تقل شيئاً.

ـ بلى،... قلت إن...

ـ أعرف ما قلته...

فكر برشت: السُّم اللذيذ الذي ينفثه الممثل. ثم تحولت رغبته في مصالحتها فجأة إلى حقد: من تظن نفسها تلك الحمقاء؟

ارتدت ماريا سترة وسألته:

ـ هل يمكن أن تحضر لي نصي؟

نهض برشت، فتح الخزانة، وتناول النص عن الرف. فتحته ماريا على الصفحة المعلَّمة ببطاقة بريدية من باد ـ فوسلاو أرسلها لها والدها حين كان يمضي إجازة في ذلك المنتجع النمساوي للمياه المعدنية، وكانت هي في الثامنة من عمرها. قرأت دورها وعيَّنت بعض المقاطع. راح برشت يتفحصها. كان يراقبها أحياناً خلسةً ويرى أن وحدة غريبة تنبعث منها، شيئاً يميز الأطفال المنسيين في مدرسة داخلية لسنوات عديدة. تلك الوحدة تغلفها بهالة من الغموض، بغياب ـ حضور من الغرابة بحيث تلوح ماريا محرومة من مصيرها، تعيش يوماً أبدياً ويتيماً. لئن ارتقت خشبة المسرح وشاءت أن تظهر قامتها عليها، فلاستعراض ذلك اليوم اليتيم والرتيب الذي تعيشه منذ مراهقتها. على هذا النحو، يشبه الممثلون مرضى في نقاهة يعتنون بأنفسهم وكأن الأمور المهمة رحلت مع الصحة، وأنهم لن يستعيدوا تلك الصحة الآتية من الطفولة بخروجهم من المدرسة الداخلية، من سنوات عزلتهم. أجل، استنتج برشت: لا مصير، هذه المرأة مجرد حقيبة سفر موضوعة على خشبة مسرح.

11

كانت ماريا تعاني من الأرق في الليالي التي تسبق مواعيدها مع هانز ترو. أخفضت صوت الراديو، وعلمت أن ستالين والغرب تبادلا رسائل غير ودية. في الصباح، شربت شاياً ثقيلاً لتصحومن نعاسها ثم ذهبت للمشاركة في التمارين على مسرحية أنتيغونا. كانت غير معنية مباشرة بالمشاهد فجلست في الصف الثامن بين الأرائك الفارغة. فجأة، كفَّ برشت عن إسداء النصائح للممثلين وتوجه مباشرة نحو ماريا التي كانت تبحث في جزدانها عن سوار.

تمتم بدون أن يلتقط أنفاسه كأنه لا يتنفس:

ـ معظم هؤلاء الأشخاص يا ماريا لا يدركون العواقب التي قد يجرُّها الفن عليهم، إيجابية أكانت أم سلبية. العرض المسرحي يقدم صورة عن العالم، صورة عن العالم جلية أم مبهمة، لا بد أن تعلمي ذلك، وإذا تشتت انتباهك، فلن يسلم أحدهم، ولا حتى أنت! الفن الذي لا يعد مفهوماً وقابلاً للمشاهدة يؤدي إلى الانحطاط! هل يمكنك أن تدركي ذلك؟

ثم، ردَّ بحركة غريبة ياقة سترة ماريا، حركة متزمتة لتستير نهدي الممثلة، وارتقى مجدداً خشبة المسرح.

كان الممثلون ينتظرون متسائلين عما يجري في عتمة الصالة، مدركين من تجهم برشت وتعبيره البارد أن مزاجه متعكر... ثم استؤنف التمرين على المشهد. تحولت الأعمدة وجماجم الخيول والمكتب إلى أغراض نافرة تترقرق وسط إنارة قذرة. وساءت الأمور مع انقطاع الكهرباء عن مسلاط الإنارة.

في بداية فترة العصر، تنزهت ماريا في الحديقة العامة. بوغتت بعزلة المكان. صوب أشجار التنوب، توجد سينما متروبول بمظلتها الصفراء العريضة المثقلة بالثلج. جلست على الدرجات بعد أن وضعت عدداً من صحيفة برلينز تاغبلات تحت مؤخرتها، ونسيت تعكر مزاجها، وهي تراقب جنوداً يرتدون معاطف عسكرية، يثرثرون ويخبطون أقدامهم على الأرض ليشعروا بالدفء. اتخذت السماء هيئة مغيب عتيق بملامحه الحمراء على الأنقاض. شعرت ماريا أنها استعادت سكينتها. نهضت وقصدت العنوان الذي زودها به هانز ترو. وصلت قبل الموعد بعشر دقائق.

كان نزل البجعة واطئاً، تزينه القناطر، نوافذه مستديرة ذات مربعات زجاجية صغيرة. يحتوي على طاولات مستطيلة ثقيلة من الخشب القاتم. قرب النافذة، في سحابة من الدخان الأزرق، كان شاب في منتهى الأناقة يتصفح مفكرة ويزيح أحياناً ورقاً للنسخ وهو يقيس شيئاً ما بمسطرة صغيرة. طلبت ماريا الشاي وانتظرت في شبه تلك العتمة.

وصل هانز ترو. تحدثا عن بريشت وعن فرقة برلينر أنسامبل التي يدور شعارها، مستديراً كشعار شركة مرسيدس، فوق المسرح القومي. شعرت ماريا بالانعتاق وتركت نفسها تسترسل وراء الكلمات. كانت تعلم أنها تحظى بالإصغاء. وقالت في سرِّها: لا أحد يصغي إليَّ مثله. تساءلت إن كانت معلوماتها السرية تقابل بالترحيب وتخضع لتمحيص جهاز الاستخبارات.

روى لها هانز أنه كان يعرف مسرحاً جيداً في شتيتي أثناء الحرب، وأن الضباط، أصدقاءه، غالباً ما كانوا يقصدونه. انصرم حبل الحديث وخيم الصمت، ولكن شيئاً ما منعشاً وهادئاً كان يربط أحدهما إلى الآخر. كل شيء يبدو واضحاً، رائقاً، مألوفاً كما لم

يحصل منذ سنوات. رغبت برفع الكلفة معه. فوضع هانز في هذه اللحظة غرضاً معدنياً وبارداً في يدها. آلة تصوير كوداك صغيرة مستوردة من الغرب. بينما كان هانز يسدد الفاتورة، قالت له: "لدي الإنطباع أننا مراقبان، أن الجميع يراقبنا".

سارا بضع خطوات ولم تعرف ماريا ما تفعل أو تقول. لاحظت أن المساء يخلف هالة واضحة غريبة فوق بعض الأنقاض. كانا يسيران ويتخطيان سياجاً. كل التصرفات، كل الشجارات مع برشت، كل أشكال سوء التفاهم أصبحت جزءاً من عالم يحتضر. شعرت ماريا بالثقة واليقين والرغبة بالاعتراف أن نعمة خاصة اجتاحتها، نوعاً من الخفة، بدون أن تعلم بالفعل ما كان يغمرها. ترغب باحتساء قهوة ساخنة، بيوم تمضيه في السير على رصيف يخرج مباشرة من برلين. كانت ترى قبة كنيسة وطائرة تهبط صوب تيغل.

في أية لحظة حادت عن هذا العالم الأولي والمنعش الذي يعود كلما كانت في حضرة هانز ترو؟

يكفي أن تسير إلى جانبه. يكفي أن تسمعه يشرح لها كيف تستعمل آلة الكوداك لتتبدد الشكوك والتوجسات والكوابيس والأشباح والمخاوف؛ يكفي أن تتكلم برقة كي لا يعود الجنس البشري مصنوعاً من الرصاص. لماذا حلَّ الرجاء والمرح فجأة؟ حتى ذلك البائع، تحت المترو الجوي، كان مرسالاً، بالبضاعة التي يبيعها من أمشاط وكتابين لغوته وأكسسوارات وشريط دانتيلا. باعة، سعاة رقيقون... كان لا بد من اختراع ذلك... اشترى هانز مشطاً.

ثم بسط معطفه المطري وسط أشجار التنوب السوداء، وطفق يتكلم.

تكلم عن مهمته وكأنه شاء أن يؤدي ثانية جزءاً من حياته التي ألغاها بعد حدث يحتفظ به سراً. ولكن التعب والحيرة تجليا على وجهه حين صرح بشيء من الإزدراء الأليم:

ـ الآن، أعرف ما أريد!

راح يتكلم بصوت أكثر ارتفاعاً. وتحت أشجارالتنوب تلك، كانت تلك الجملة المكررة تلوح كالرسالة الغريبة المبهمة:

ـ أعرف ما أريد يا ماريا!

افترقا قرب المسرح القومي. كان الشعار المضيء لفرقة برلينر أنسامبل يدور في المساء وينعكس في القناة. ابتعد هانز على طول الرصيف. رأت ماريا أن كل شيء يقبع في الخدر والنوم، العالم يرقد. كان مركب مائل للخضرة، متثاقل، ينزلق، عميقاً، على صفحة الماء.

في اليوم التالي، شعرت ماريا ببوادر هلع على الرغم من نواياها الحسنة (لا بد أن أظهر دائماً بمظهر بشوش، أنا أنتيغونا، أنا خفيفة، أنا ملاك). حكَّ أحدهم على بابها وهي تستحم. رددت:

ـ نعم؟... من هنا؟

فأجاب برشت:

ـ لماذا لا تقفلين باب الحمام؟ هل تنتظرين أحدهم؟

ثم شعرت بأصابعه تنزع عنها المنشفة، تدفعها نحو السرير، ثم السجادة.

أثناء العناق، تمتم:

ـ لمن؟

عضَّها بقوة. فاضطربت ماريا بسبب هذه العضة.

ـ لمن؟ لمن كنت تؤرجحين مؤخرتك هذا الصباح؟

هوى المصباح قرب السرير أرضاً.

فارقها صافقاً الباب. أحست ماريا بأنها "العشيقة شجاعة" لأنها أثارت على هذا النحو غيرته وأخمدت هيجانه وسط ما يدعوه "مغامرته الإيروتيكية". عندما عاد إلى الغرفة، لم يبق سوى رجل

وامرأة يتساكنان، يتحركان، يتحدثان، مسترخيين ظاهرياً إنما قد فقد كلاهما ثقته بالنفس. كانت الكلمات التي يتبادلانها خالية من أية نبرة. لمعت ولاعة في الظلمة. ردد في قرارة نفسه: الواحدة تأخذ، الأخرى تعطي، الواحدة تعطي، الأخرى تأخذ.

جلس على السرير، تناول رواية أميركية. لم يقرأ بل تذكر أنه كان ينزلق على السجادة مع روث، ويضاجع هيللي على السلم، ويفعل ذلك مع غريتا جالساً على الإفريز المعدني لأجمة من الزهور. مع روث، كان يوقف سيارة الستير السوداء ويفعل ذلك على منحدر حتى بدون أن يخلع ثيابه.

12

قُدِّم العرض الأول لمسرحية أنتيغونا في شهر نيسان/ أفريل. وعلى الرغم من حصول المسرحية على التقدير الآلي للهيئات الرسمية، فقد مر أداء ماريا مرور الكرام. كان المعلم برشت يحارب أية محاولة لفرض تراتبية داخل الفرقة المسرحية.

انقضى شهرا أيار/ماي وحزيران/ جوان. سفريات، لقاءات، استعدادات لاحتفالات الشبيبة. صارت ماريا تمص أقراصاً بنكهة العسل لأن صوتها يتعب سريعاً. في أواخر تموز/ جويليه، رافقت برشت وفرقته إلى ضفاف البلطيق.

أهرنشوب. على شريط رملي طويل، تمتد هذه المدينة الصغيرة التي تستحق أن تحفظ في متحف ببيوتها الضيقة الجميلة، وأخشابها المنحوتة، وأدراج مداخلها، وسلالمها الداخلية، تخيم عليها أجواء سكينة من وحي بداية القرن التاسع عشر. وبعيداً، الكثبان، ثم

مساحات الرمل المبلل، فملطم الأمواج المتآكل بسبب مياه البحر، بعض كابينات السباحة، مساحات كبيرة ومسطحة. سهوب من الماء المالح...

جاء بعض المصورين لالتقاط صور لبرشت.

أسكنت ماريا في بنسيون عائلي قرب كنيسة من الخشب. كانت تدعى في بعض الأحيان لتناول كأس في المساء. وتتسكع، بقية الوقت، على الكثبان الرملية. نهارات صافية توحي بأن الأرض توقفت عن الدوران. أطفال كشطت جلودهم وتقشرت، نحيلون، أطرافهم هزيلة، والقشعريرة تسري في أبدانهم، يغطسون في أمواج شديدة الخضرة تلطم الرصيف. تغسل كل شيء تلك الأمواج، تؤكسد كل شيء، الظهور والركب، براز النوارس، والمعالم. كانت ماريا تغطس في هذه المياه الباردة لتنسى.

صارت تنأى عن الفرقة البرشتية. نهارات من الريح والضياء، طويلة ومثالية. الساعات تنيم المرء وتخضعه. كانت ماريا تتعثر أحياناً وسط الأمواج، تراقب الأطفال وتفكر بابنتها. مشهد بعض العائلات المستقلية على مناشف السباحة يبعث في نفسها الكآبة. تنسى إرهاقها وهي تسبح بعناد.

بعد الظهر، صمت السماء الشاحب الزرقة. يتحول السابحون إلى نقاط منمنمة، ويتلألأ البحر. الاتساع، الغيوم... شيء من الرقة الإلّهية يملأ ماريا. تبدو القوى البحرية وكأنها تبتلع الهامات في التماعات البحر. تتساءل ماريا لماذا يجب تفسير أمور غير مفهومة بأمور مفهومة. تجلس على مقعد عمومي وتتأمل الأمواج المسائية المديدة التي تأتي من البلدان الاسكندينافية وتبيض الشاطىء بانتظام شديد.

في إحدى الأمسيات التي كانوا فيها مجتمعين، راحت ماريا

تغمض عينها اليسرى ثم عينها اليمنى وهي تنظر إلى شجرة صنوبر، فسألها برشت:

ـ ما هذه اللعبة التي تلعبينها يا ماريا؟

ـ إنني أتسلى...

تعاظم الصمت والتفتت الرؤوس صوبها.

ـ وماذا أيضاً...

ـ كنت أقيس التفاوت في الرؤية بين العين اليسرى والعين اليمنى.

اقتربت فايغل من المائدة وهي تحمل قنديل زيت وضعته بين الفناجين والكؤوس.

سألها برشت: ـ وماذا استنتجت؟

أجابت ماريا: ـ لا شيء.

وأضافت:

ـ كنت أتساءل عما يبرر الشر... وهل الله موجود...

لم يصدر أي تعليق. سمعت هيلين فايغل تحك عود كبريت. نزعت غطاء القنديل، أشعلت الفتيل، وحدَّدت قوة الشعلة. كانت بعض قطرات الماء قد سوَّدت المفرش على المنضدة الخفيضة، وعاصفة رعدية تتوه بعيداً فوق البحر. قال برشت:

ـ من الأفضل الاستغناء عن التفكير في مسائل ليس بوسعك حلها.

قاطعته هيلين فايغل لتسأل ماريا:

ـ ماذا فعلتِ اليوم بعد الظهر؟

ـ زرتُ كنيسة الصيادين القديمة ثم سبحت.

اصطدم فنجان بكأس، احتسى برشت الشنابس، ووضعت روث برلاو يدها اليمنى على شعرها الداكن. علَّق برشت:

ـ من الأفضل الإستغناء عن الخوض في قضايا لا حلَّ لها.

وأشعل سيجاره.

يحدث أن يستدعي برشت ماريا إلى الحجرة الصغيرة التي تحولت إلى مكتب ومخدع. فتجري الأمور بينهما عموماً على النحو التالي: تستلقي ماريا وتُعرَّى من ثيابها ببطء. بعد المرحلة الإيروتيكية، يستحم المعلم. تصوِّر ماريا خلسة الأوراق على المكتب.

أحياناً، تنبش كذلك في الأوراق المرمية بسلة المهملات وتبسط مسودات.

في ذلك الصيف، سلمت إلى موظفة بريد شابة أربع لفائف من نيجاتيف الأفلام أرسلت إلى برلين. علم فيها أن برشت بعث ثلاث رسائل إلى إريش هونيكر، وكان نائباً آنذاك، يتوسط فيها للممثل الشهير أرنست بوش الذي لم يرق للسلطات ورود اسمه في أغنية للأطفال. وثمة كذلك رسائل بعثها إلى الملحن بول ديساو الذي اعتبر بدوره، بعد المقطوعات الموسيقية التي لحنها لمحاكمة لوكلوس، من الشكلانيين المريبين. أضف إلى ذلك رسالة إلى كورت بارتيل، الأمين العام النافذ لاتحاد الكتاب، يتوسط فيها أيضاً لإرنست بوش، ورسائل إلى ناشرين أجانب. تلقى هانز ترو الذي كان يمضي الصيف يطالع الصحف الغربية طرود ماريا. ظهَّر النيجاتيف واستنتج: "لا شيء في هذه الرسائل سوى الملل، لدينا علم بكل ذلك أصلاً...". انحنى إلى الخلف على أريكته وقال لتيو بيلا: "أرغب بمعرفة متى ستحمل ماريا من "المعلم"."

صارت ماريا تكثر من مفارقتهم بدون إخطارهم طوال فترة إقامتها في أهرنشوب. غياباتها تغيظ برشت. يدخل إلى الحمام فيرى أن

أنتيغونته الصغيرة قد علَّقت منشفة زرقاء على المسمار قرب النافذة وعقدت مايوه السباحة الأبيض الضيق على أكرة النافذة. كانت قماشته المجعدة والمبللة تتأرجح في مجرى الهواء كأنها تتحدى برشت العجوز. أجل، ذلك المايوه الأبيض المجعد (وطرف الدانتيلا الصغير على صدريته) يرفرف برفق، ويدور في تيار الهواء الصباحي. كانت هذه القطعة من القماش تتحدى المعلم. توقف عن حلاقة ذقنه، وضع فرشاة الحلاقة على المغسلة، ولمس بيده الدرزات الخفيفة التي تحدد الموقع بين الفخذين، ذاك الذي يلتصق فيه القماش على تلة فينوس. تساءل عن سبب اتخاذ ماريا، أثناء المضاجعة، سحنة ملكة ميتة، مبحرة نحو النجوم، مغمضة الجفنين، كأنها منسحبة في قرارة نفسها. كانت تفلت منه، ولا تكتفي بذلك بل تفلت من جلسات عمل الفرقة، تفلت من الدروس النظرية، تفلت من سلالم المسرح، تفلت مفرغةً بقايا جعة في الكؤوس، تفلت بذهابها للسباحة صباحاً وظهراً ومساءً، مجازفةً نحو التيارات البحرية العميقة.

احتسب في ذهنه: لم أضاجعها سوى أربع مرات منذ وصولنا، الأخيرة على مشمع الأرضية.

أكمل حلاقته، ارتدى ثيابه، وتناول عصاه للذهاب إلى الشاطىء. لم يلمح أولاً سوى الحديقة المغمورة بالشمس، والطريق المزفتة، المليئة بالتشققات وبتدفقات رملية كبيرة، ثم سلك الدرب الذي تعلوه آثارعجلات. بوغت بالتدحرج المتلألىء للأمواج إذ بلغ قمة الكثبان.

أين هي؟

كان لا يرى سوى الأفق الشاسع والأمواج الصغيرة التي تلحس سعة الشاطىء المدورة. هبط المنحدر الرملي بعد أن نزع صندليه فقرصته الأشواك. كانت السماء البلورية تحوي بعض الذيول المتناهية الصغر من السحب الرقيقة. هبات من روائح نبات الضريع البحرية الجافة... اجتاز برشت بمشقة شريط الحصى ونظر باتجاه الشاطىء.

لمح الكيس القماشي، وعلى منشفة مبسوطة الدفتر المدرسي الذي تدون عليه ماريا الملاحظات أثناء التمارين على مسرحية أنتيغونا.

جلس على طرف المنشفة وتأمل البحر. أمواج، صيحات أطفال، رياح. فكر بعدد المضاجعات التي فوَّتها.

اجتاز نورس وحيد نطاق البصر الأزرق وأطلق صرخة حادة. كانت الأمواج الصغيرة بطيئة تحت الشمس بحيث يتساءل المرء إن كانت هذه المساحة الشاسعة كتلة عميقة، واحدة، خضراء، جامدة. في هذه اللحظة، ظهرت ماريا، متجمدة، مرتجفة، مغطاة بقطيرات الماء. سمع بريشت صوته يبادرها بحرارة زائفة:

ـ تعالي، سوف أفرك جسدك...

جلست موليةً له ظهرها فيما قبض هو على المنشفة المليئة بالرمل وراح يفرك المساحات الناعمة في ظهرها كما يجرش جدار. تشنجت وتقوقعت قليلاً، ففرك برشت بقوة ذراعيها كأنه يحف بالحجر؛ ثم، لما أراد أن يقبل البقع الحمراء التي ظهرت على فقرات سلسلتها، تهربت ماريا. أقحم برشت يده بين فخذيها:

ـ هل تريدين أن تبلغي النشوة؟

ـ لا، ليس الآن.

تمددت على منشفة السباحة. بعناية شديدة، تأملت البشرة الوردية والمتهيجة على ذراعيها.

ـ لا أعرف كيف أتعاطى معك!

غفا الإثنان وسط زئير الأمواج. حين كانت ماريا أيش تدير رأسها، تلمح بين رموشها ترقرقات خط صافٍ، عبور ظلال، شظايا معدنية صغيرة على سطح المياه.

تصاعد بساط من الغيوم لجهة الشمال، وتحول لون البحر إلى بنفسجي داكن في مواضع عارية وباردة. نهضت ماريا، ارتدت تنورتها، اختفت كالشبح يلتمع وسط درب من الأشواك.

بعد نوم ثقيل، نهض برشت وتأمل الشاطىء. كان مهجوراً كلياً، مهجوراً إلى حد الإيلام، يحترق وسط جفاف حاد. عندما عاد إلى الفيلا، وجد غسيلاً جافاً على حبل، وقمصاناً تمتلىء كلما نفخها الهواء بما يلوح كالصدور غير المرئية لدمى الملاهي.

للحظة، امتلأ جزء من السماء بخرخرة طائرة صغيرة ثم تضاءل الصوت تضاؤلاً مديداً. ثغر من الصمت، الحديقة، الكراسي الطويلة، مائدة الحديقة المعدنية تتجلى في سائل يتميز بجموده الغريب والزائف. أعتم العبور المتثاقل للسحب درج المدخل لبرهة من الزمن.

خال برشت أن الأرض ماتت أو نأت عنه لأن هذا الثغر الصامت، هذه الأعشاب التي تلمع ما عادت تحوي سوى رحيق نهايته، الرحيق الرائع والمتلألىء لرحيله.

أعدَّ لنفسه مبتهجاً فنجان قهوة وشربه، جالساً على درجات المدخل، منتظراً عودة الآخرين.

13

خلال بعض الأمسيات في فيلا برشت، تكون ماريا أيش معزولة في طرف المائدة.

في إحدى هذه الأمسيات، فارقت المدعوين وقررت تبديل موضع الأثاث في غرفة برشت. اكتشفت إنجيل لوثر تحت منضدة النوم وراحت تطالعه. عثرت بين الصفحات على زهرة بنفسجية مجففة، وتساءلت عن هوية الشخص الذي وضعها في ذلك المكان.

أقبل الليل. ظلت مسمَّرة، والإنجيل في حجرها، متخدرة في أحلامها. لم تكن حزينة. ثم سمعت وقع خطوات في الرواق، فتح

الباب، أدارت يد مفتاح الضوء. كان برشت وبيده كأس شمبانيا يتلألأ.

ـ إنه لك.

شربت ببطء لأنها تعرف الطقس الذي سوف يلي ذلك: عرَّاها، أدارها إلى الحائط، وأخذها. لاحظت أنه لا يأخذها بل يقوم بمداهمة. تشبثت بالستارة الصفراء ثم شدَّت قبضتيها حين استبدل بريشت فحولته المتهالكة بمقبض فرشاة شعر.

في الصباح، تناولت كيسها القماشي، حشرت فيه المايوه والمبذل وقبعة السباحة، ثم تسللت خارج الغرفة، هربت عبر بوابة الحديقة الخضراء.

كان صباحاً بهياً. السماء بيضاء، والحر يغمر الفيللات والبنسيون الكبير الذي أصبح يأوي أبناء كوادر الأمة. كان الهواء مرتعشاً مثل الذكريات المبهمة. كل شيء لطيف وجليل. يشعر المرء بضوضاء الأمواج والصخور والطحالب. هناك، إلى الجهة الشمالية من الشاطىء، تصون شبه جزيرة العواصف الرعدية. ثمة كذلك حقل أصفر، وخلفه النوافذ المشرعة لكازينو قديم تحول إلى بيت الشعب... كانت تسبح... أثناء فترة إقامتها، سبحت في المكان نفسه. قناة مائية أكثر عتمة، خط أسود أكثر انخفاضاً، بقية بنية تحتية لمضاد طوربيدات. بسطت قميصها على عمود. لا تشعر في أي مكان آخر بالارتياح والسعادة. حياتها تفنى في الحركة الأبدية للأمواج. تسمر، تصفر، تلمع. كان البحر يتلألأ عند الظهيرة، يصبح بنفسجياً الساعة الرابعة عصراً. تفتر ساقاها. تشعر بنفسها ناعمة، جميلة، متكاسلة، ومتهورة. يباغتها شراع بعيداً في البحر كالسراب. تنزع نظاراتها السوداء، تتذوق شاياً بارداً محفوظاً في الترموس. تسبح في تناغم. تنزلق في الماء. تشكل السماء ثغراً غريباً، ثم يتصاعد الكثير من السحب المتراصة والمكفهرة وتتبخر؛ تذوب آلاف الشرارات، يتغير

صوت المد الصاعد ؛ تنسى برشت وزمرته، كوخهم الإيديولوجي سوف يتداعى...

بعد مشاجرة مقتضبة مع برشت، اكتشفت حرج صنوبر خلف الشلال القديم. حقول، ومستنقعات، وصفاء مذهل يحوم وسط الطبيعة الضبابية. مكثت بغباء، في إحدى الأمسيات، قرب تفرع السكة الحديدية. كانت السكة تتوه في خبث الحديد، ممر صدىء من جديد، عشب على أرصفة مهجورة. شعرت بأنها منجذبة بشكل لا يصدق إلى هذا المكان. كان المسرح، المسرح الحقيقي للكون، هنا.

في برلين، لشدة ما أثارت التقارير الأخيرة التي أرسلتها ماريا حيرة هانز ترو، وضعها في ملف يتعلق بالتوجيهات من أجل إعادة تنظيم موانىء البلطيق. حشرها في حقيبة، وأضاف مذكرة لشراميك حول الترتيبات الأمنية لجهاز المحاسبة. ثم توجهت هامته الطويلة إلى آخر الرواق. أمضى فترة بعد الظهر في مسبح قديم لوزارة الحربية. عاد في المساء حاملاً شطيرة صغيرة من الخبز الأسود والنقانق وحبس نفسه في مكتبه لإعادة قراءة محضر أحاديث ماريا مع برشت و"زمرته". كانت الفقرة الأكثر غرابةً تتعلق باعتماد تقويم للأعياد الضرورية للدولة الجديدة. وضع برشت، حسب ماريا، واقترح بدقة شديدة سلسلة من الأعياد الرسمية. عيداً للنصر، وعيداً لتبادل الهدايا (لماذا تقديم الهدايا في الليل، النازيون كانوا يقدمون المطاوي الطويلة)، عيد النضال العالمي، يوم الشبيبة، وأخيراً، الكرنفال.

خلص التقرير إلى أن الكرنفال لا بد أن يكتسب أهمية فائقة، يوم التنكر والتهكم، "يوم الحداد على أكثر الممتلكات قداسةً والتهكم على أرفع الشخصيات". سطَّر بالريشة تحت تعبير: "التهكم على أرفع الشخصيات".

ظل لبرهة صامتاً، وقد اعتراه الذهول، يفكر: من منهما يمزح، هي أم هو؟

أعاد هانز قراءة الملاحظات الأخيرة مراراً وتكراراً، ورأى أن حقيبته لا تتسع لمثل هذه الترهات. فمزقها مثنى وأرباعاً ثم بعثرها وهو يفكر بـأنه لم يشك إطلاقاً بأن ذهن برشت من الإلتواء بحيث يتخيل عيداً تتعرض فيه أرفع الشخصيات للهزء والسخرية... مما يدل على خللٍ في جهازه العقلي. قرر، إذ اعتراه الإضطراب، أن يعود ويلتقي ماريا أبكر مما كان مقرراً ؛ اتصل بالوسيطة، وهي طالبة شابة في مسرح دريزدن، اسمها أورسولا بروكمان. كانت تتابع دورة تدريبية في مغسل ثياب فرقة برلينر أنسامبل، وتعنى بكيِّ أزياء المسرح. اتصل برقم هاتف وظل يصغي إلى الرنين على الطرف الآخر من الخط، ولكنه قلق بعض الشيء لأن أحداً لم يرفع السماعة. حاول ثانية الاتصال في المساء، أخبرته المرأة التي رفعت السماعة، وهي تدعى إيكمان، وتعمل كذلك في مغسل الثياب نفسه، أن أورسولا بروكمان اختفت منذ بضعة أيام. شعر بتوتر غريب، ثم بضغط متعاظم، فتعاقب الساعات والإرهاق والملل. قرر زيارة غرفتها في المدينة الجامعية.

صوته مخنوق أمام مكتب الإستقبال. أعاد الحاجب تزرير بزته بذلك الحدس الذي يتحلى به الجنود، حتى الذين يرتدون ثياباً مدنية، للتعرف على السلطة. رافقه إلى الغرفة في الطابق الرابع. كانت زنزانة بيضاء ضيقة، عثر فيها على بقية شاي في كوب يعلوه غشاء من الكلس. تقويم بعض الأيام فيه مشطوب حتى يوم الإثنين، وآثار قلم رصاص على نسخة غير أصلية من لوحة دورر التي تصور رأس ملاك في محاولة لزيادة عدد الخصلات في شعره. على المغسلة، آثار صابون، مدفئة كهربائية مستوردة من الغرب، وفي الخزانة، قميص يدور برفق حول علاقته. وأخيراً، مذياع موضوع على نحو غريب تحت ألواح السرير الحديدي، وعطر غير مألوف يفوح في الغرفة.

ـ هل رحلت منذ فترة طويلة؟

ـ الثلاثاء الماضي.

ـ وهل أخطرتَ أحدهم؟

ـ مدير السكن.

ـ هل كانت تبدو مغمومة؟

ـ من؟

ـ أورسولا بروكمان.

ـ الجميع يشعرون بالغم.

تفحص هانز الأقفال وقضبان النافذة، ثم انتصب قائلاً:

ـ أعطني مفتاح الغرفة.

توقف للقيام باتصال هاتفي سريع في نزل يشرف على البحيرة البيضاء ثم عاد إلى بيته، وضع مفتاح الغرفة في علبة سيجار هولندي صغيرة، وخطر بباله أن الطريقة التي تختفي بها الشابات مثيرة للعجب. كانت تلك الطالبة بدون شك من أولى الهاربات. يعلم أن ما حدث لن يروق لأوتو وغروتفول. الإرهاق، الملل، تعاقب الساعات. تأمل مجموعة من الصور الفوتوغرافية التي قامت روث برلاو بتكبيرها.

تأمل ساهماً صورة لهيلين فايغل تجلس فيها على عربة الأم شجاعة، وعلى رأسها منديل فلاحة. لن نحافظ طويلاً على الجماهير بمثل هذا النوع من المسرح...

14

سفح شهر كانون الثاني/ جانفي البياض على مدينة برلين. صارت

سيارة الخدمة السكودا السوداء العجوز تختفي تحت ندف الثلج. لبس تيو بيلا مجدداً قفازيه وراح يراقب بالمنظار النافذتين المرتفعتين نسبياً بأعمدتهما المذهبة ذات الطراز الدوري. على الرغم من الأغصان العارية لشجرة دردار، بوسع المرء أن يميز بوضوح غرفة برشت. لا ستائر فيها، لا ستائر داخلية، برشت يذرع المكان رواحاً ومجيئاً... للحظةٍ، تراءى المعلم، شاحباً، بقبعته المشدودة على رأسه وسيجاره الذي يتصاعد منه الدخان. لعله يتأمل عتمة جادة برلين والشرفة الصغيرة...ثم، انقلبت النافذة ؛ وكان من الواضح أن برشت يرمي شيئاً بين الأوراق المتعفنة في الأسفل.

عدَّ تيو بيلا المتخدر بسبب البرد وثلاثة أرباع ساعة من المراقبة عداً آلياً المربعات الزجاجية الصغيرة في عقد النافذة. كانت تتقدم وتتراجع كما في المنام بسبب التفحص المفرط للنوافذ. انتفض تيو حين انصفق باب السيارة وأشعره هانز ترو بحضوره المغطى بالثلج قربه؛ نزع قفازيه وقبعته.

ـ ماذا يجري؟

ـ ألديك بطانية؟ أتجمد من البرد.

ـ ما الذي يجري هناك؟

غمغم تيو:

ـ أمور خلاعية.

فرك هانز يديه وتناول المنظار:

ـ هل ماريا موجودة؟

ـ إنها في الحمام...لا تبدو مستعجلة...

عدَّل هانز المنظار وحدد المعالم السوداء في الغرفة.

قال تيو وهو يفرك بيده الغشاوة عن حارفة الهواء:

ـ أنت تحب هذه الغرفة.

أجاب هانز: ـ أجل، أحب الغرف.

ـ وأنا كذلك، ولكنك تحب بشكل خاص غرفة ماريا.

سأل هانز: ـ ماذا؟

ـ تحب هذه الغرفة. إنها غرفة ماريا، أنت تحب ماريا.

ـ أجل.

ـ لطالما أحببتها.

ـ أجل.

أضاف تيو: ـ وأنا أيضاً...، أنا أمزح.

علق هانز الذي كان يراقب تنقلات برشت: ـ أنا لا!

أضاءت ابتسامة وجه تيو:

ـ لماذا لا تضاجعها؟

ـ ممنوع الاتصال.

ـ ماذا تعني؟

ـ ممنوع الاتصال الجنسي مع العملاء. ممنوع إطلاقاً. إطلاقاً أثناء العمل يا تيو، إطلاقاً.

همس تيو: ـ شفتاها معبِّرتان...للغاية.

ـ للغاية ماذا؟

ـ معبِّرتان، كل شيء فيها معبر.

قال هانز: ـ شفاه ممثلة، لدى الممثلين، كل شيء معبر. كل الشفاه معبرة بدون استثناء...

كان يتابع تنقل برشت من نافذة إلى أخرى.

يعضعض برتولد على سيجاره ويتصفح سريعاً الصحف الغربية.

لاحظ هانز: ـ إنه يقرأ تايم لايف و فرانس ـ سوار.

ـ يجوز له قراءتها.

كان هانز يراقب هامة الرجل ويمطُّ شفتيه مشككاً.

ـ لماذا لا تضاجعها؟

ـ المضاجعة ليست الحل.

فتح هانز باب السيارة برفق لإفراغ المنفضة.

ـ لماذا لا تضاجعها؟ أنت مغرم بها... ما هو الحل؟

ـ عفواً؟

ـ ضاجعها!

وضع هانز المنظار على حجره ورمق تيو.

ـ أحب هذه المرأة، والشيء الوحيد الذي بوسعي القيام به من أجلها هو مساعدتها على العبور إلى الغرب.

ـ لا بد أنك تشعر بشعور غريب وأنت تراها تتنقل من غرفة إلى أخرى مع ذلك البدين!

ـ ماذا فعلا؟

ـ رتبت هي صوانين ثم طالع هو الصحف مدخناً في غرفتها. ومن ثم، أظن أنهما فعلا أموراً في الحمام، على السرير، تحت السرير، لم أتمكن من رؤية ذلك.

بعد برهة صمت، كرر تيو السؤال:

ـ لماذا لا تضاجعها؟ رافقها إلى الغرب وضاجعها في الغرب.

ـ لا أريد.

ـ لا تستطيع.

ـ لا.

ـ هل أقول لك شيئاً؟

ـ كلا.

أضاف هانز:

ـ دعني وشأني.

ران صمت طويل. تساءل هانز عن سبب إخفائه، منذ مرحلة المراهقة، لكل شعور غرامي، وإحساسه بأن مثل هذا الشعور معيب. تذكر نزهة وسط الأعشاب البرية، ذات صيف، على ضفاف البلطيق،

عصراً، حين يشهد البحر مداً هائلاً. كان من المتوقع أن يعلن غرامه لإنغريد التي تقدم امتحانات البكالوريا مثله. المكان يعج بالأعشاب البرية والمد البحري العارم، وإنغريد التي بعثرت ثيابها ثم سبحت عارية بدون أيما شعور بالحياء، وظل هو مرتدياً ثيابه، هلعاً لمجرد التفكير بالبوح بغرامه، محاولاً تركيب جملٍ في ذهنه ومترعاً بالاقتراحات البلهاء أو غير اللائقة، جالساً على سورٍ صغير، يتأمل الفتاة التي يحب وهي تسبح، يشعر نحوها بشهوة جامحة، ويدرك عجزه المطلق عن المبادرة. كان يشعر بالشلل بينما تلف إنغريد جسدها بمَنشفة، ثم تلتصق به، مرتجفة، وقد غطت قطرات الماء كتفيها. يستحضر ضفيرتها التي تتأرجح على رقبتها وتغدو شيئاً من الجاذبية والسحر بحيث يبادر إلى عزله كالصورة الذهنية.

أجل، قفزت الفتاة على الرمل المبلل ضاحكةً، وهرولت فيما كانت عاصفة رعدية تتصاعد خلف الفيللات.

قال تيو: ـ أنت مشلول.

أجاب هانز: ـ أجل.

رفع هانز ياقة معطفه وشعر بالبرد يتسلل إلى قدميه.

زمجر تيو: ـ ها هي.

اعترى هانز توجس مبهم إذ استعاد المنظار لمتابعة تحركات الثنائي. تبدلت الإنارة في الغرفة العلوية، وأصبحت وردية، كأن برشت أطفأ الثريا الكبيرة في السقف واحتفظ بالإنارة الجانبية.

مدَّ برشت ذراعه وأراد أن يخلع عنها برفق المبذل ولكن ماريا أزاحت بجفاء ذراعه عن كتفها. وضع هانز المنظار جانباً، وشعر بنفسه قد اغتسل من أي توجس .

اعترف في قرارة نفسه أنه يرغب أن يكون مع هذه المرأة في

حياة أخرى. ثم جلس ورأى أنه يفضل أن يكون معها في هذه الحياة. كان من الواضح أن ماريا لا تحب برشت.

التفت الهامة المكتنزة لتيو بيلا بدخان أزرق. احترقت نقطة حمراء. قال هانز:

ـ لا يجب أن تدخن.

لمح هانز في انعكاس الزجاج وجهه، وكانت ذيول الثلج تكون مشهداً قمرياً يثقب هذا الرسم الأسود.

قال تيو:

ـ الأمر سيان لدى الجميع.

وأضاف:

ـ أتعلم يا هانز، أنا أعشق النساء، وحين أعتبر أن إحداهن حمقاء مسكينة، أستطيع مضاجعتها!...أما حين أكون عاشقاً، فأظن أنني أرى مريم العذراء أمامي. هل تفهم قصدي؟

ـ كلا.

أعاد هانز تزرير أعلى معطفه، وضع المنظار في علبته، ورأى أن حياته مجرد سلسلة من الأفعال غير المفهومة، ولكنه يعلم على الأقل أنه يحب وطنه، ويحب مهنته، ويحب ماريا أيش، ولكن لا أحد من هذه الأمور ينسجم مع الآخر. أضحى الكلام بالنسبة إليه شاقاً في بعض الأحيان.

سأل تيو: ـ هل تريد أن نناقش الموضوع في أحد الأيام؟ أن نناقشه ملياً؟

أجاب هانز: كلا.عمت مساء يا تيو.

سلك متمهلاً الطريق بين أشجارالتنوب. تفككت الخطوط المضيئة على طول البحيرة.

15

في فصل الربيع، انزعجت ماريا بسبب بعض الأحداث. أولاً مشادة جرت في قاعة التمارين إذ أقبلت إحدى سكرتيرات برلينز أنسامبل تعرض عليهم صوراً للفرقة قبل توزيعها على الصحافة. أجمع الحضور على رأي ممثلة سلافية أعربت عن تفضيلها لماريا، بوجهها الذي يلفه منديل مثلث، وشبهها بطليعية شابة. وعلى الرغم من اعتراض ماريا على هذه الصورة التي تجندها عملياً وتخفي شعرها البديع، اضطرت للإذعان لما تدخل برشت وأعلن بنبرة متهكمة: "المرء غير المثقف غالباً ما يرى الجمال في التشديد على التناقضات، حين تكون المياه الزرقاء أكثر زرقةً، والقمح الأشقر أكثر اشقراراً، وسماء المساء أكثر احمراراً، والممثلات مجعدات الشعر مثل الكلاب الجعيدة...". كانت ماريا تفضل صورها غير الاحترافية الموضوعة على منضدة التبرج في مقصورتها.

في الرواق، بعد انتهاء التمارين، أثارت ماريا الموضوع ثانية مع برشت الذي أكد لها، وهو ينزل السلم، بشيء من التضجر:

ـ كل ما يجمِّل يؤدي إلى الإسفاف، ويكون غريباً عن الفن الذي يعتمد على ترسيخ الابتعاد، لا تنسي ذلك!

أجابت ماريا: ـ لا بأس!

أصبحت عبارة "لا بأس" من أجوبتها المفضلة. وحين تتثاقل الأجواء، وتشعر بنفسها محرومة من ذلك "المنطق السليم البروليتاري" الذي يجول في الأروقة مثل روح من أرواح الغابة، تلوذ بحانة في ساحة هنرييتنبلاتز، وتتصل بابنتها لوتي. باتت تمقت فايغل

الشجاعة. وتنظر متحققةً من جمالها إلى واجهات شوارع حيها ونوافذها.

أخيراً. مأساة أخرى، فلدى استدعائها للحصول على بطاقات تموينية وقسائم وإضبارة خاصة تمنحها قرضاً امتيازياً، بوغتت، إذ غادرت المبنى، بمشهد بعض الأطفال الذين يلوحون جائعين. كانوا يحاولون إشعال سجائر غربية. أرادت أن تسرَّ بالأمر لهانز الذي أظهر بعض التذمر على الهاتف. وشرح لها "أن أدوات العمل موزعة توزيعاً جيداً في المدينة".

كرَّر لها، بشيء من الاستعجال الميكانيكي، أنها تضطلع بمهمة. وسألها أخيراً عن أجواء التمارين وتقويمها للأهمية التربوية التي تكتسبها مداخلات برشت. هل تحدث عن صين ماو تسي تونغ؟ كان جواب ماريا التي لا تكترث للأمر، ولا تحلم سوى بتناول القهوة معه: "أجل، أجل متوقدة، أجل قلب نقي". بودها أن تقفل عائدة إلى بيتها، وتطمر نفسها تحت الأغطية، وتستيقظ وهو إلى جانبها.

ولكن صوت هانز على الطرف الآخر من الخط قطع حبل حلمها البرجوازي الصغير:

ـ ما سبب انزعاجك؟ ما الذي يصدمك؟ إنك تخبرينني أموراً تافهة...

تلعثمت ماريا: ـ كل ما يحدث ليس مريحاً.

ـ لماذا؟...

قالت: ـ أشعر بأنني سأفشل. كنت أحلم بأداء دور أنتيغونا تحت إدارة برشت. أحلم باليونان التي يحترق فيها كل شيء تحت الشمس. أرغب بآلهة، ببحر يتحرك، يتلألأ، يبهر، وأجد نفسي في بيت للأموات وسط أشخاص يقسمون العالم إلى نوعين: أنذال من صغار البرجوازيين وطبقة عاملة سعيدة.

قال هانز: ـ أجل، بلد يتلألأ فيه البحر...اليونان...

ثم تابعا الحديث عن برشت.

ـ ماذا يعلّمكم أثناء التمارين؟

ـ مداخلاته قليلة جداً. يجلس في القاعة، لا يشوّش أبداً على عملنا، ليس على دراية بالأمور دائماً أفضل من غيره، ولا يوحي بأنه يعرف مسرحيته. موقفه على الدوام موقف شخص "لا يعلم". لو سأله أحد الممثلين: "هل أتحرك في هذا الاتجاه... حين أتلفظ بالجملة الفلانية؟"، غالباً ما يجيب برشت: " لا أعلم"، ولكنه يستفيد من كل الاقتراحات والحركات والإيماءات. تنتابه أحياناً نوبة مرح. ذلك هو برشت الذي أفضله!... يعشق أن يحيط نفسه بتلاميذ فتيان، وإذا ما أعجبه اقتراح أحدهم، ينقله ويتبناه. إنه منفتح، مسترخٍ، لا يبالغ في شيء... لا يطيق أن تدور النقاشات حول علم النفس؛ وفي هذه الحالة، يضع حداً لها...

أحست ماريا، إذ تفوهت بهذا الكلام، إحساساً مبهماً بأنها تقدم صورة شديدة التسامح عن برشت. تريد أن تظهر بأنه لا يشعرها بالاضطراب لا عاطفياً ولا جسدياً، وأن بوسعها الحكم عليه بدون التنكر له. تخشى أكثر ما تخشاه أن يفقد هانز ترو كل احترام لها، وبودها لو تقول كلاماً يبرهن له حبها للواجب الاشتراكي.

وعندما بادرها هانز ترو بمرح غير متوقع: "في يوم من الأيام، سوف أحضر التمارين لمجرد إثارة القشعريرة في بدن حمامة بيكاسو!"، تساءلت إن لم تحقق غايتها، وهي إثارة مشاعره.

16

كان تيو بيلا في منتهى السرور. فقد عثر، وسط جبل من الإضبارات والتقارير المصنفة "سرية"، على مذكرة من شخص يدعى ريتشارد أ. نلسون أقام لفترة طويلة في هوليوود. منذ وصول برشت

إلى برلين، نقل بعض المعلومات في التقريرالذي يخصه. كانت هذه المعلومات لا تقدم جديداً عن الكاتب المسرحي "الشيوعي الميول"(*) حسب تعبير الأميركيين باستثناء أن مكتب التحقيقات الفدرالي لم يحصل على الإذن بالتنصت على فيلا برشت في سانتا مونيكا. وبالمقابل، وضعت عشيقته ومعاونته، روث برلاو، الممثلة الأسوجية الجميلة، تحت المراقبة المتواصلة. مطاردات، تفتيش في بريدها، تقارير منتظمة. كان تيو يستمتع بإحصاء عدد الأخطاء التي بوسعه أن يعثر عليها متلذذاً بتقارير مكتب التحقيقات الفدرالي. لقد بلغت عقدة الإضطهاد الأميركية مبلغاً فساد الاعتقاد بأن العقد الذي وقعه برشت مع شركة وارنر، والمحفوظة منه نسخة في جامعة إيلينوي، يحتوي على معلومات مشفَّرة وراء المصطلحات القانونية المستعملة. وثمة تقرير آخر يستغرب فيه نلسون الاهتمام الشديد الذي يبديه برشت بشأن آلات التصوير الفوتوغرافية في عام 1944. أما تيو فيعلم السبب: كان برشت يمضي وقته في تصوير بطن روث برلاو الحامل...

عند الظهيرة، خرج ترو لتناول شطيرة من النخاعات على ضفاف نهر هافل، ثم زار متحف صناعة المراكب. ظل هذا المتحف على حاله تقريباً منذ أن زاره في صباه مع والده. في الواجهات الزجاجية مجسَّمات وقوارب وزوارق شراعية وسكاكين وإبر لخياطة الأشرعة وصور فوتوغرافية، شاحبة الألوان لتجهيزات سفن قديمة. تساءل هانز ترو إن كان برشت يظن حقاً بأن المسرح سوف يبرز قوى ثورية. هل يخطط للفرار إلى الصين أم إلى النمسا كما قالت ماريا؟ أعاد قراءة الملاحظات والتفتيش في بريد برشت. لماذا عاد برشت للاستقرار في هذا البلد الذي حتى القهوة فيه كريهة؟ هو العاشق للمال، وأوراق

(*) ورد التعبير في النص الأصلي بالإنكليزية على الشكل الآتي: of communist tendencies (المترجمة).

البنكنوت، وحياة الدعة؟ وحتى المرأة المثالية لديه هي الأسوجية أو النمساوية وليست بالتأكيد البرلينية الشرقية ببزتها. هل يمكن أن تبدله المادية الماركسية؟ هو الفوضوي السابق؟ ماذا كان يرجو؟ ماذا يريد؟ المجد؟ الثأر لمذلته الأميركية؟ هل يخفي حقداً برجوازياً صغيراً عائلياً دفيناً؟ هل يحلم بأثينا جديدة؟ هل يسعى وراء امتيازات خاصة بدافع الغيرة من الوضع المميز لتوماس مان؟... ماذا يريد؟

كانت ماركسيته نفسها خارجة عن التاريخ، بتأليهه لروزا لوكسمبورغ وكارل ليبكنيشت... الحمار وحده يبحث عن مثل هذه المخلفات الأثرية. ومن ثم، ذلك الحماس المتمسرح لوضع لافتات على الخشبة كأن جميع المشاهدين ممسوسون.

غادر المتحف واجتاز جسراً. لمح منزلا روماني الطراز يحتفظ فقط بدرج مدخله سليماً من الدمار، أفاريز النوافذ في واجهته محترقة، وفي الداخل، تموج من العوسج يهدهده الريح.

عاد إلى مكتبه، رتَّب بعض البطاقات، وقرر أن يذهب مساء لحضور إعادة لمسرحية \الأم شجاعة حلت محل مسرحية أنتيغونا .ثم، تفحص ملياً السبورة السوداء، وتناول قطعة من الطبشور، واستبدل الرقم 2 برقم 3 كبير. كتب: حربان عالميتان؟ لا، الحرب الثالثة بدأت ولكن لا أحد ينتبه لها...

عندما ارتدى معطفه الواقي من المطر، خطر بباله أنه سوف يهتم، في الواقع، بمؤلف مسرحي يذكر ملفه الطبي أنه لن يعيش أكثر من عشر سنوات نظراً لوهن عضلة قلبه.

17

تلطَّخت صورة ماريا أيش بسبب الفشل النسبي لعروض مسرحية

أنتيغونا .فبدَّل برشت في توزيع أدوار مسرحية \أورفاوست وأسند لها دوراً ثانوياً. كان يكرس معظم وقته لكيتي روليكي.

كانت هذه الممثلة الشابة تعمل كذلك في تحرير ملحق ثقافي لصحيفة ألمانيا الجديدة تحت إدارة شتيفان هرملين. وتتمتع بكثير من الجاذبية.

جاء عنصران من الشرطة ملحقان بعمدة برلين الجديد لاصطحاب برشت أثناء جلسة تمارين.

اقتيد المعلم في سيارة مرسيدس أثرية كحلية اللون: عبر في المرآة العاكسة عبر شجر بلوط وسندر وصنوبر وقيقب وبناؤون وورش بناء.

ثم ولج الجميع المبنى الكبير؛ ارتقى برشت سلالم مخفوراً بامرأة ترتدي بزة بنية وتعقص شعرها بإحكام. دخل مكتب العمدة الذي تكومت فيه المناشير وعلقت على تلبيسات السنديان لوحة تحت الزجاج لأولبريشت برفقة ستالين.

عندما خرج برشت من هذه المقابلة، روى ما يلي:

ـ لم يقل لي العمدة لا صباح الخير ولا إلى اللقاء، لم يوجه لي الكلام مرة واحدة، وترك معاونيه يؤديان هذه المهمة. تلفظ بجملة عادية يتيمة حول مشاريعي غير الواضحة التي قد تدمر الأمور الحالية. بالطبع، اقترح آكرمان ويندرتزكي اعتماد مسرح الجيب(*). وتطرق الحديث كذلك إلى تدابير تقشفية. لقد صمَّت أذناي بهذا المسعى البرجوازي الصغير: "لكل فرد من أفراد الشعب مقصورته الخاصة في المسرح".

(*) ورد التعبير في النص الأصلي بالألمانية على الشكل الآتي: kammerspiele (المترجمة).

ثم أضاف:

ـ شعرت بأنني تلطخت على نحو غريب بل أهنت تقريباً. للمرة الأولى، أشم الأنفاس الكريهة للأرياف.

تعاظم نزق برشت. صار ينتقد الجميع بكثير من التجني خلافاً لطبعه. أصبح التنقل في برلين يتطلب المزيد والمزيد من التصاريح، وكان يعلق على ما يجري بسخرية فظيعة سرعان ما تدونها ماريا على مفكرة حالما يولي لها ظهره. العلاقة بالعالم، المواقف، الأداء، النجاح، الولائم، الأسئلة، الغد: اكفهر كل شيء.

باتت عاملات التنظيف اللواتي يتولين فرقة برلينر أنسامبل يتحدثن بصوت منخفض. ثم مرض برشت مرضاً مفاجئاً، ولم يتمكن من المشاركة في مؤتمر الكتاب. بعث رسالة إلى رئيس المؤتمر. سافر برفقة كيتي روتليكي وكلاوس هوباليك وبيتر بالتيش إلى مدينة روستوك. هناك، تابعا عن كثب التمارين الأخيرة لمسرحية دون جوان من إخراج بينو بيسون. كانت كيتي تشارك بحيوية في النقاشات، تتدخل وتتخذ مواقف انتزعت الكثير من الإعجاب. لم يكتشف فيها برشت ممثلة رائعة تكن له الإعجاب الشديد فحسب بل معاونة ذكية. أخطر اتصال هاتفي ماريا أيش بما يجري.

عاشت ماريا فترة تراجعت فيها حظوتها بعد النجاح الهائل الذي حققه ذلك الاقتباس لمسرحية دون جوان لموليير. صارت مجرد تلميذة إيروتيكية موضوعة على رف فوق منضدة نوم المعلم العظيم. كانت لعبة بيد قواد. راحت تردد:

"قواد!"، "قواد!"، "مفكّر قواد! ولكنه يظل قواداً!"، مع علمها بأن هذا الوضع لا يختصر بمجرد شتيمة. ما عادت الكلمات، حتى المبتذلة منها، تحميها من الخيبة العارمة التي تنهشها يوماً بعد يوم.

غالباً ما كانت تغادر مقصورتها وتتسكع على ضفاف نهر هافيل،

تدخن السيجار الصغير لتشعر بأنها على المستوى. لقد رسمت في أحلامها صوراً أكثر بهاءً عن حياتها في برلين. قاست رهانات الحملة الإعلامية المغرضة التي تهدف إلى نعت برشت بالشكلاني وانخرطت فيها مكثرةً من التقارير. بذلت جهدها لتزويد هانز ترو بمعلومات أكثر فأكثر دقة. صارت كل ملاحظاتها سلبية بحق برشت. ماريا التي كانت تعتبر، منذ بضعة أشهر، أن برلينر أنسامبل فرقة من العفاريت المرحين الذين تحملهم سذاجتهم على الاعتقاد بأنهم قادرون على تثقيف الشعب، راحت تشوه صورتهم. تشدد على الخلافات والتبجحات وانتهازية المقربين من برشت. شعرت باللذة المقيتة لتسريب الأسرار وتلطيخ السمعات. عوملت كدمية؟ سوف يرون... ملاحظاتها اللاذعة والدقيقة تختزل برشت وأعماله وأحاديثه إلى هذيان متهتك برجوازي صغير يستغل الجدلية للحصول على امتيازات. وصفته واقفاً أمام منبره متسائلاً عن السبيل لإغواء نساء المسؤولين والتحايل على توجيهات اتحاد الكتاب، بل رفعت بعض مسودات القصائد التي يعترف فيها برشت أن ريح العدم تعصف في رأسه بعد أن جفَّت قريحته...

انزعج هانز ترو لدى قراءة هذه الملاحظات. راح يصنفها على حدة، وأكثر من ارتياده لأروقة مسرح برلينر أنسامبل بحجة أو بأخرى، للتحقق من صحتها. كان يتلكأ في مكاتب الإدارة، يتجول ويصغي. يقف خلف الواجهات الزجاجية المرتفعة للأكاديمية الألمانية للفنون الجميلة بساحة كوخبلاتز. يشكو بعض الممثلين المعتزلين الذين أخرجوا في اللحظة المناسبة من عزلتهم من أساليب برشت، ويتحدثون عن التزامات قام بها مع أحد الناشرين في الغرب، مناخ من الحذلقة الإيروتيكية يتحول إلى فضيحة لدى المحاربين الفاضلين لتحرير البروليتاريا.

في آخر فترة العصر، دخلت ممثلة شابة قدمت من بولندة، ترتدي كنزة بحرية، وترسل شعرها على كتفيها، إلى مقصورة ماريا وسألتها:

ـ هل كنت عشيقته؟

ـ وما زلت.

ـ يقال إن عشيقاته كنَّ كثيرات، كثيرات جداً.

ـ أجل.

ـ هل خنته؟

ـ لا...

ـ أنا أضاجع أياً كان، ولا أكترث للأمر. لا يهمني أن يستبيح جسدي كهل أو شاب طالما يتمسك بي بما فيه الكفاية ليزودني بالمال. في الواقع، المال هو السبيل الوحيد للتحقق من تعلق الرجل ولو قليلاً بالمرأة...

ـ أرى أن ما تصرحين به سيء.

ـ سوف نرى متى أصبحت في نعشك، يلتهمك الدود؛ ومنضدتك للتبرج أصلاً هي نعشك. كم عشيق كان لديك في حياتك؟ لا بدَّ أنهم كانوا يتزاحمون على بابك.

وأضافت:

ـ لديك طفل؟

ـ أجل.

ـ وأنا كذلك، ويزعجني أن أقحم طفلي في مجتمع أعتبره رثاً، معتوهاً، مدعياً، ويرفع شعارات بلهاء.

في الأمسية نفسها، بدلاً من موافاة برشت في نادي النورس، سارت ماريا على ضفاف البحيرة. مراكب، خط أنوار أحياء أخرى، جنون العيش بدون عناقات حقيقية. مشاعر محترقة.

كانت تحلم بالسباحة في جزيرة يونانية، بموافاة أبيها وأمها اللذين تحولا إلى كهلين مسكينين يستدفئان تحت الشمس على كرسيين طويلين. لاحظت أن خطاها ما عادت تحدث وقعاً، وأن ظلها يتضاءل على الجدران، وأن عالمها الداخلي يجتاحه الخواء

والريح. كانت ترغب بأمواج صغيرة متلألئة إلى ما لا نهاية لتفقد وعيها وتتحول إلى طحلبة. احتمت من زخَّة مطر. أصغت إليها بالضبط كما تصغي إلى الهضاب المحرَّجة حول فيينا. اجتذبها باب قديم يذكرها بحديقة مراهقتها. أحسَّ خدها بطراوة الغابة. تحول مشعاع عتيق ينخره الصدأ إلى رفيقها للحظات قليلة. تساءلت إن كانت لبرشت روح وطفولة، فقد كانت لا تجد لديه أي أثر لهما...

يصدر الغرب والقطاعات الحليفة بيانات تهديدية. تحتدم الدعاية، قاسية وعنيفة. تشن الصحف الألمانية الغربية حملة شعواء على المسؤولين في بانكو. والكنيسة الكاثوليكية، لا سيما في نواحي ميونيخ وروما، تصب الزيت على النار. ما عادت العواصف الثلجية تخفي إقلاع الطائرات العسكرية وهبوطها المتواصلين. تتعرض الأخلاقيات الاشتراكية للتهكم في مقالات رؤساء التحرير الذين يعملون لحساب الأميركيين. في برلين الشرقية، في الوزارات، تظهر فرق من الموظفين مثابرةً مثيرة للقلق. تطول النقاشات للتيقن مما إذا كانت النظرية اللينينية حول المعرفة تحترم في المسارح الألمانية. تتكاثر المطاردات، وتفتيش البريد، واعتمد التنصت على المكالمات الهاتفية. شعرت ماريا مجدداً بأنها مفيدة في هذه الحركة الواسعة من الاستنهاض السياسي والزخم الثوري. "بقلب أكثر فأكثر توقداً"، انغمست في أداء واجبها، وأظهرت خبرة في الفراش مع برشت، تمنح نفسها، تتمنع، تقدم نفسها، تسجل بصورة محمومة أبسط ما يقول.

كان عملها الاستخباراتي يحسن مزاجها، يمنحها فرحاً غريباً: كانت مسرورة سروراً مريراً بالإسهام في مهمة وشائية. عندما تصغي إلى الشحارير تغرد قرب المطبخ، عبر النافذة المفتوحة، تشعر بأنها تغرد معها. الشحارير كذلك يوشي الواحد منها بالآخر، من غصن إلى

غصن. طبيعة الدولة، طبيعة عملها، الطبيعة الكبرى الهامة تعمل كلها بالاندفاع عينه... الشرف...الاعتزاز...الفضيلة...الشحارير... وملاحظاتها الاستخباراتية تحمل الفرح لهذه الأمة الجديدة. التاريخ والبشر والعصافير تغرد متخلصةً من عالم قديم فاسد، وتغرد احتفاءً بولادة نظام جديد على أنقاض النظام القديم.

كانت تشعر أنها شحرورة بين الشحارير.

أما برشت فكان يتوزع على ثلاث ممثلات فاتنات. لا يكف عن الإكثار من الهدايا الصغيرة مسروراً لرؤية ماريا رائقة المزاج. بعد أن يستيقظ في الصباح الباكر، يغني وهو يسخن الشاي. أعلن لها في صباح أحد الأيام أنه يدعوها لقضاء الصيف بأكمله في منزله ببوكوف. دوَّنت ماريا المعلومة ثم نقلتها إلى هانز ترو مع التواريخ. وكانت كل هذه المعلومات تصل إلى وزارة أمن الدولة.

يدخل حاجب إلى مكتب فسيح، مضاء، مستدير، فينهض الجنرال أورلو (وهو اسمه السري) بتثاقل ويستلم المحاضر مزمجراً. تقرقع أعقاب الجزم العسكرية. يصرف الحاجب بإيماءة متجهمة ثم، وبعد أن يغلق الباب، يباشر بتمزيق الظرف بسبابته، يخرج الأوراق، يطالعها وقد ارتسم على وجهه تعبير اشمئزاز. كلام برشت هذا متشرب بانحطاط الغرب(*). يقرأ بسرعة ثم يهاتف أوتو غروتفول، رئيس الوزراء(**). لديه الأدلة والبراهين على اللعبة الخبيثة التي يلعبها

(*) ورد التعبير في النص الأصلي بالألمانية على الشكل الآتي: westliche Dekadenz (المترجمة).

(*) ورد التعبير في النص الأصلي بالألمانية على الشكل الآتي: Minister praesident (المترجمة).

برتولد برشت. برشت؟ عدو ديكتاتورية البروليتاريا. انفصاليٌّ في دولة تحتاج، أكثر من أي وقت مضى، للوحدة أمام الهجمات الامبريالية الأميركية. في الواقع، كان يفضل أن يجري حديثاً مع الجنرال كلاي على أن يضطر لقراءة التقارير حول برشت وفرقته.

بوكوف

1952

1

في شباط/فيڤري 1952، زار برشت وهيلين فايغل أرضاً جميلة على ضفاف بحيرة شيرموتزل تبعد ساعتين عن برلين. أشجار باسقة قديمة، بيت متواضع وظليل. في الأعلى، بيت فسيح أبيض، بني السطح، تحتل واجهة زجاجية عريضة زاوية من زواياه، بالإضافة إلى باحة مبلطة، ودفيئة. على الفور، ذكرتهما هذه الملكية ببيت سفوبوشتراند في الدانمرك عام 1933.

أحب برشت هذا البيت المحاط بأشجار الصنوبر، وأجمات الورد البري، والبحيرة الرمادية، والممر، والمقاعد القديمة، والدفيئة.

استقرت فايغل في البيت الفسيح المطل بالضبط كما استقرت في مسرح برلينر أنسامبل للاستقبال والتنشيط والتفكير والتقرير والكتابة والهيمنة.

اختار هو الجناح الصغير ذا القرميد البني القريب من البحيرة.

طوال صيف 52، اهتمت فايغل بتوجيه الدعوات. ممتازة هي في التنظيم والتنسيق، وتبديل ملاءات الأسرَّة، وإعداد قائمة الطعام، وتلميع الأثاث، وإعطاء التوجيهات للطاهية. أقامت ماريا أيش في الجناح الصغير. تتأمل المعلم يكتب عندما يكون الصباح لم يزل طرياً بعد، والبحيرة تتلألأ.

يكتب برشت باكراً في ساعة الطراوة. تطالع ماريا مسرحية كوريولان أمام الباب، على مقربة من الدفيئة، أو مستندة إلى أشجار الصنوبر. عثر برشت على طاولة من طاولات الفنادق. أعاد كلاهما طلاء قوائمها الحديدية وأريكتين للحديقة. يطيل برشت فترات القيلولة مطالعاً مجلداً لهوراس، ولكنه يجده شديد التسامح مع الشعراء الضعفاء، بالضبط مثلما يشعر برشت بنفسه محاطاً بمستشارين ومؤلفين مسرحيين وشعراء شديدي الضعف يكتبون اقتباسات ركيكة.

قال لماريا: ـ يلجون إيقاع القصيدة كما تمشي بقرة في ثقب.

يطالع باهتمام شديد الصحيفتين اليوميتين تيغليشي روندشاو وألمانيا الجديدة لمعرفة من الذي سيتعرض للهجوم. أكاديمية الفنون؟ المقربون منه؟ هو؟

يحلو لماريا أن تتناول مجذافي زورق قديم في المرآب وتضمهما في حبال، وتتنزه بمحاذاة القصب. غالباً ما تلمس بارومتراً معلقاً في الرواق. سألتها هيلين فايغل:

ـ هل كل شيء على ما يرام؟

ـ على ما يرام...

ـ الطقس حار...

ـ درجة الحرارة 21 في الرواق.

ـ يبدو أنك تشعرين بالحر.

ـ لا، لا بأس.

ـ بلى، تشعرين بالحر...

ـ يروق لك المكان؟

ـ...

ـ يبدو عليك الملل. هل تريدين أن أغير ملاءات سريرك؟

ـ غيَّرتُها.

حين يغفو برشت في أريكة الخيزران، يحلم يوماً بعد يوم بأهله.

الصوت الغث لأبيه وصوت أمه القريب. التركيز الشديد لأمه وهي تقرأ له لوثر.

حين يغفو، تتناول ماريا نظارات المعلم، تنظر عبر الزجاجتين وهي تتخيل سراً أنها سوف ترى بعيني العبقري. لا تبصر سوى البلاطات والعشب وهامة فايغل المزروعة أمام الدفيئة. تبتسم وعلى وجهها تعبير متواضع هو كبرياؤها. تضع ماريا النظارات وتغادر المكان وهي تفكر بأنها باتت بدون أي وسيط من أجل "الإتصالات الطارئة". هل ما زال هانز في برلين؟ ينام برشت نوماً ثقيلاً، نائياً جداً في زوايا وهنه القلبي. تلوح شوارع أوغزبورغ شاحبةً، أمسيات لا تنتهي، طيور السُمامة تحلق على مستوى الأشجار، معلنةً عن العاصفة الرعدية. يسأل برشت الطفل:

ـ ماذا يوجد في السماء؟

ـ الجنة.

ـ هل أنت متأكد؟

ـ كل التأكيد يا برتولد.

ـ أخي والتر يقول العكس.

لاحقاً، حين أعتم الجزء المزجج من الدفيئة تحت الشمس وانزلق ظهر برشت قليلاً في أريكة الخيزران:

ـ هل تعود إلى البيت؟ هل تعود إلى البيت يا برتولد؟!!!

ـ وأخي والتر؟

ـ هو يضع ربطة عنق، نظيف، يغسل يديه! يرتب غرفته! ينتبه! غرفته ليست في فوضى!

ـ لا، لن أعود.

عندما استيقظ برشت، كانت زرقة السماء قد اسودت. سماء مرتجفة، حديقة في بهاء الصيف الذي لا يتعب، حياً وطاغياً. لا يستطيع أن يلتقط شيئاً، يخالجه هلع مباغت، الوقت القليل المتبقي

له، العالم غائب... لحظة لا معنى لها، متأرجحة، غير مستقرة، هاربة. لا يلمح سوى مايوه ماريا المنشور على السياج. يرغب بذراعين منعشتين، بجسد منعش يعبق برائحة المستقبل. يسبح في المياه المظلمة. يجري العدم طافحاً حول البحيرة.

عتمة، حفيف، تمتمات. مياه السماء، مياه البحيرة. الدرب والأشجار الباسقة. ماريا وبرتولد يتجهان إلى السياج نفسه كل مساء. تنفتح الحقول على شكل منحدر خفيف. تموجات عشبية، أسيجة كثيفة، ذرى أشجار التنوب السوداء. تلمع البحيرة. تتشتت الغيوم ببطء يوحي بتيارات قوية على علو. يضع برشت يده أفقياً على جبينه ليتأمل حدود السماء تلك.

في إحدى الأمسيات التي كان يتنزه خلالها مع ماريا على الطريق المحاذية للبحيرة، لمحت ماريا سيارة مرسيدس رمادية. تسير بطيئة في ظل سياج. توحي بأنها سيارة دورية للشرطة. تعرفت على ثلاثة رؤوس داخلها من بينها رأس تيو بيلا ولكنها استأنفت، على الرغم من دهشتها، الحديث عن توزيع الأدوار والتمارين الجديدة على مسرحية كوريولان. نظرة خاطفة وحيدة نحو برشت، قلقه. يتظاهر بالإصغاء إليها، تتظاهر بالتحدث إليه، ثم يقاطعها على حين غرة ويلتفت نحوها قائلاً:

ـ لقد هدرنا وقتنا!

لاحقاً، ارتقى السلم الخشبي الصغيرالذي يؤدي إلى العلية. كان قد وضع فيها مكتباً ضيقاً يكتب عليه نصوصاً قصيرة بقلم أزرق كبير. ينظر إلى الحديقة عبر النافذة المنمنمة ذات المربعات الزجاجية السميكة.

في ذلك المساء، كتب ما يلي:

واقفاً أمام مكتبي
ألمح، عبر النافذة، في الحديقة، شجرة بيلسان
أتبين فيها الاحمرار والسواد،
وفجأة أتذكر بيلسان
طفولتي في أوغزبورغ.
لدقائق معدودة، أنوي
بمنتهى الجدية أن أبحث
عن نظاراتي على الطاولة،
لأرى ثانية تلك العنبيات السوداء على أفنانها الحمراء.

2

تخدرت ماريا أيش بعد انقضاء المفاجأة السارة بالإقامة في جناح جميل محاط بأشجار عتيقة. تعاني من حالة ذهنية غريبة. تشعر بتعاظم انسلاخها. غرفتها، لجهة الشمال، رطبة تطل على أغصان مغطاة بالبراغيث. في الليل، تتنفس هواءً عفناً. ثلاثة أيام من الريح العاتية أرخت غيوماً عريضة، رمادية، نهرية. الريح تلوي أغصان الأشجار.

بالتأكيد ما زالت صاحبة الحظوة ؛ بالتأكيد، لفتت الأنظار في مسرحية \الإبريق \المكسور لكلايست ؛ بالتأكيد، شعرت بقربها من روث برلاو التي تحتفظ بالزخم والنضارة على الرغم من كنزاتها القديمة. وعلاوة على ذلك، التقطت لها روث صوراً مميزة في دور إيفا، بالقبعة البيضاء والتنورة الريفية.

غالباً ما كانت تتسلل باكراً بين الضباب والشمس في الرواق وهي تضع منديلاً على رأسها وتحمل روايات تحت إبطها. تختبىء في

الدفيئة بين الأحواض المتلفة والنباتات التي غزتها الأعشاب. تسند كرسي مطبخ عمودياً على لوح أجرش شديد السماكة يعكس ضوءاً مائياً على الأرضية.

من موقعها، ترصد الضيوف الذين يتحلقون حول برشت: ممثلين من درزدن، طالبات، بول ديساو... تظل جالسة، تهيم في أحلام اليقظة حول هذه المجموعة من الشابات اللواتي يلححن على برشت بالأسئلة.

بكياسةٍ وتضجر مهذب، يتلقى الملاحظات والأسئلة. تعلمت في ظله تلك الدماثة التي لا تفنى وتفرغ القلب إنما تتيح لها بالمقابل أن تصبح يائسة مبتسمة بامتياز. في تقاريرها المتعددة لهانز ترو(بمعدل تقريرين أسبوعياً)، ليس بوسع ماريا أن تحجم عن توسيع نطاق ملاحظاتها ليشمل ماضي برشت الذي يعاود الظهور على مر الأمسيات المخمورة.

أكثر من نصف تقاريرها لهانز ترو يتعلق بنوادر عن هوليوود، عن العامل الأميركي "المتورط في رغد العيش". تتوه على هذا النحو في تفاصيل غريبة. تروي ثلاث مرات، على لسان أكثر من شاهد، استجواب لجنة الأنشطة المعادية للولايات المتحدة لبرشت أمام الصحافة والإذاعة والسينما. تروي أنه قدم تلاوة لمسرحيته التعليمية بل تعثر على قصاصات من الصحف الأميركية. تصورها بآلة الكوداك الصغيرة المزودة بمنفاخ. لا تعلم أن في حوزة هانز وجهاز الاستخبارات نسخة عنها زودتهما بها ممثلة أخرى.

تحرر مذكرة طويلة لتروي أن برشت كان يتنزه، وبيده كأس من الجعة، في فيلا أحد الأصدقاء وسط الأثواب النسائية، أثناء "حفلة"، في المساء الذي أعيد فيه انتخاب الرئيس روزفلت. كان غروتشو ماركس وتشارلي تشابلن الوحيدين اللذين اجتمعا حول المذياع لمعرفة النتائج الدقيقة للانتخابات. كتبت ماريا كذلك فقرتين

عن تشارلي تشابلن وتأثيره العظيم على برشت لا سيما في مسرحية السيد بونتيلا وتابعه ماتي. فقد اقتبس عن فيلم أضواء المدينة لتشارلي تشابلن فكرة هذه المسرحية التي يصبح فيها أحد أرباب العمل إنسانياً حين يثمل فيحب عماله ويوافق على مطالبهم، ثم يعود في صباح اليوم التالي، بعد صحوته، إلى طبيعته الكريهة.

تساءل هانز إن كان الحماس الذي تبديه ماريا للعمل الاستخباراتي لا يخفي إعجاباً دفيناً مشوباً ببعض العشق لبرشت. فعبارة: " أصغي إليك" لمصدر من مصادر المعلومات تتحول بسهولة إلى عبارة: " أفهمك". كانت التقارير الأخيرة تجيز مثل هذا التأويل لا سيما أن تقاطع ملاحظات ماريا مع ملاحظات مخبرين آخرين يظهرأن برشت يعمل على نصوص "سرية للغاية" لا يفصح عنها لأي من المقربين، ويكتب تحت جنح الليل. يكذب على الجميع بزخم. يخفي بعض القصائد بطريقة لا يعلم بها أحد. وتتهرب الأموال إلى مصارف زوريخ...

طلب هانز ترو من ماريا ألا تقلق وأن تلقي نظرة في العليات وخلف حوض الحمام، وأن تكثر من اللقاءات المباغتة. ولكن السؤال المطروح يبقى الآتي: هل دخلت ماريا أيش دائرة الإعجاب البرشتي؟ باللجوء إلى أسلوب تقاطع وإعادة تقاطع الشهادات، استنتج هانز ترو أن الإشعاع الفكري لبرشت كان في أوجه ويؤثر في ماريا مقابل فشل المساعي الإغوائية للرجل.

أما تيو بيلا فأبى أن يأخذ تقارير ماريا على محمل الجد. ولكن ما كانت ترويه استرعى انتباهه يوماً: فقد تحدث برشت في إحدى الأمسيات، أمام كأس من الكونياك الفرنسي الفاخر، عن أنا سيغرز مهرِّجاً، ثم، وفي نوبة مرح، وصف برلين ـ برمتها ـ على أنها "محفل ساحرات يفتقرن، فوق كل شيء، إلى مقابض مكانس". خرج من مكتبه ووضع المذكرة أمام رئيسه.

ـ سوف يروق لك ذلك يا هانز... هل تسمعني؟ برلين، "محفل ساحرات" !...

ـ يزعم أحد مصادرنا أن برشت كتب عدداً من القصائد المشفرة ضد أولبريشت وغروتفول.

ـ هل تصدق ذلك؟

ـ بالتأكيد.

كان هانز يستعرض سحباً متصلاً "لصورٍ عن صور". يظهر فيها برشت مشرقاً أثناء إقامته في فنلندة مع عشيقته روث برلاو التي ما كانت قبل تلك الفترة بمثل ذلك المرح. في الصور، تظهر في غابة من أشجار السندر، أمام خيمة، على شاطىء البحر بالمايوه، عند مدخل قرية غير معروفة. ترتدي قميصاً مفتوحاً عند الصدر، سروالاً قصيراً فاتحاً، تسريحتها رائعة، وجهها يشع بهجةً، مؤخرتها نافرة، كل صورة من هذه الصور تثير الاضطراب والإثارة. ينبعث منها شبق حيواني مثل ذلك الصيف الجميل، مثل تلك الشابة الفاتنة. كانت كل التفاصيل في هذه الصور توحي بجنون إيروتيكي.

لاحظت ماريا أن برشت كتب، على ظهر إحدى الصور، بقلم الحبر: "قضيبي مقابل مملكتك!".

تنقضي الأيام بهدوء في بوكوف، رمادية أو مضيئة، مشمسة أو كامدة. ابيضت بشرة برشت، وازدادت خدوده سماكة، وتثاقلت خطوته. كان هانز يتعرض لقصف من الملاحظات بهذا القدر أو ذاك من الفائدة. ولكنه تأكد من تطور حالة ماريا حين نسخت له قصيدة لبرشت كتبت في السادسة صباحاً أمام بحيرة متثاقلة وتحت سماء خفيضة. وسوف تكون هذه القصيدة تحديداً، كما أحبتها هي، أحد الأدلة الأساسية في القضية التي سترفع يوماً بحق فنان الشعب ذاك:

أواه يا ألمانيا، ممزقة أنت إلى شطرين،

ولست وحيدة في بلادك.

في البرد والظلمات،
كل شطر يريد أن ينسى الآخر.
لكنت امتلكت سهوباً بهية
ومدناً كثيرة مفعمة بالحياة
لو وثقت بنفسك
لأصبح كل شيء مجرد لهو أطفال.

حصلت أجهزة الاستخبارات الألمانية الشرقية على دليل قاطع. ورفعت هذه القصيدة، مرفقةً بمذكرة هانز ترو، إلى الأمين العام للحزب الذي أطلع غروتفول على القصيدة "السرية". فاعتبر هذا الأخير أن هذا النص مجرد تعبير كاريكاتوري لفنان عاش طويلاً في المنفى وصار مريراً.

ظلت المذكرة قابعة في أحد الدروج مع نية استغلالها في يوم من الأيام. كان يكفي الانتظار ريثما تحمل عروض فرقة برلينر أنسامبل كل العمال البرلينيين على التثاؤب ضجراً لإرسال القصيدة إلى موسكو.

3

جلس هانز ترو وتيو بيلا يستظلان الزريبة. يراقبان البحيرة. هناك، في الهواء الحارق، يتناقش برشت مع الملحن بول ديساو. جلس الإثنان أمام توليفة موسيقية موضوعة على طاولة الحديقة، وتحلق الممثلون من حولهم.

تمتم تيو:

ـ أراه! أراه!

كان هانز الجالس على أرومة شجرة يضع شريحة من لحم السلامي على خبز أسود.

ـ أراه! أراه!!!!

بالطبع، كان برشت حاضراً بسيجاره وقبعته المائلة على أنفه مثل جد يتهيأ للقيلولة.

ـ إنه مرهق، أليس كذلك؟

في البؤرة المضيئة، يرى حشرات تهتز، وهباءً مذهباً في كتلة أوراق الأشجار. أضاع برشت ثم عثر عليه ثانية، عاجزاً عن التحكم بعدسات ذلك المنظار الضخم. هالة، إنارات، نور معاكس يلتهم كل شيء بعناية، ظل مضيء. وأخيراً، نجح في تثبيت العدسة.

ـ ليس في أحسن حالاته.

ـ هل يصغون إليه؟

ـ كلا.

ـ إنه مستهلك.

ـ كثيراً.

ـ مستهلك جداً.

ـ ماذا يفعلون؟

ـ ينظرون إليه.

ـ وهو؟

ـ يتكلم، يتكلم والآخرون يستمعون...

ـ ناولني المنظار.

ـ يؤسفني أن أرى كل هؤلاء الأشخاص الذين يصدقون كلامه.

ـ إنه يخنقهم بالثرثرات والنظريات مما يشيع في نفوسهم الطمأنينة.

ـ من؟

ـ الممثلون.

ـ أتساءل إن كانوا ممثلين حقاً.

ـ ماذا تعني؟

ـ أعني أن لا أحد ممثل تماماً.

ـ يتكلم بدون أن يرفع ذراعيه، هل لاحظت ذلك؟

ـ يتحاور مباشرة مع الله. من الند إلى الند...

ـ إنه خبير في لعبة البوكر.

ـ تباً لهذا المنظار الذي يقتلع عيني. أفضل منظار البحرية.

ـ هل تظن أنهم جميعاً يكنون له الإجلال؟

أجاب هانز: ـ أجل، ناولني المنظار.

كانت الحشرات تطن حول المدعوين. اكتشف هانز امرأة فاتنة، الممثلة كيتي رايشل، ثم عثر وسط هالة على وجه ماريا أيش الساحر، الشديد الوضوح... لمح للحظة خاطفة خدي برشت غير الحليقين، أو بالأحرى أسفل خديه. استعرض وجوه الممثلين الشبان. اعتراه الحنين لمجموعة من الشبان حين كان يدرس الحقوق في لايبزغ، النقاشات، الإلفة، الكلام اللاذع.

انتزع منه تيو المنظار وراح يوافقه على بصره. ثم قال بعد صمت طويل متأمل:

ـ هسس...

ـ ماذا؟

ـ ينصرفان.

ـ أرني!

ـ هما. ينصرفان... يذهبان للاختباء...

ـ أرني.

ـ أنت على حق، ليس في أحسن حالاته. يمشي بصعوبة...

راقب ماريا وبرتولد ينسلان وراء الأشجار الباسقة بمحاذاة

الجدول. كانت هامة كل منهما تتفتت تحت أوراق الأشجار. توقف الثنائي. كان برشت يتكلم، توقف عن المشي ملوحاً بذراعيه. أتلفت الشمس ضفة الجدول.

ناول تيو المنظار إلى هانز.

ـ لا أرى شيئاً.

ـ إنهما تحت أوراق الأشجار، أنظر إلى أقدامهما. كم أعشق ذلك!... الخنزير!...

تمتم سريعاً:

ـ لا ألمح سوى أقدامهما ولكني أظن أن الأمور تسير على ما يرام... على خير ما يرام!...

ـ ماذا؟

ـ إنهما يعبثان.

ـ ماذا ترى؟

ـ لا شيء. ثوب ماريا الأحمر فقط. عنقها فاتن.

اختفى الثنائي تحت شجر السنديان.

قال تيو: ـ حسناً، هلا ترجع لي المنظار من فضلك؟

ـ بالتأكيد لا.

4

كانت تحب هذا المناخ الرمادي، ضفاف البحيرة الكامدة بعض الشيء، الصخور النحاسية، والخضرة بخطوطها الوارفة والكئيبة، وتلك الأعشاب التي تتحول إلى أمواج بفعل النسيم، تلك الأشنات ذات الخضرة الحامضة. تركد بعض الغيوم، ولشدة وضوحها عند خط

الأفق، تمنح الإحساس بأنها تولد ضياءها الخاص وتشيع رقةً على الهضاب المتحلقة؛ كراسي الحديقة، الأحذية القماشية التي تجف على إفريز نافذة، الجدار الخفيض وورده البرية، روائح الحجر الساخن، السنديان بحفيفه الأسود يبث شيئاً ما يسبّب الدوار ويغوص في ركن من أركان السماء...

كانت ماريا تربّت على البارومتر في الرواق لترى الإبرة تتأرجح.

في يوم إثنين، قام جيورجي لوكاس بزيارة لبرشت. لمحتهما ماريا يتمشيان على طريق البحيرة نحو القصب. تأنقت هيلين فايغل فارتدت قميصاً أبيض مستدق الياقة، وصديرية مزهرة، وثوباً بنفسجياً تغطيه زخارف فارسية، وانتعلت حذاءً قماشياً من الحبل المجدول في منتهى الجمال، ووضعت في معصمها ساعة سويسرية صغيرة أهداها إياها برشت مؤخراً. مضت لقطف الفراولة قرب البيت الخشبي حيث تناول لوكاس الشاي مع برشت لاحقاً. تحدثا عن كاتب مغمور يترجم أشعار هوراس بحس إيقاعي "كبقرة تمشي في ثقب" حسب تعبير برشت. تطرقا إلى فاوست وغوته ومسرحية كوريولان وانكبا على شكسبير. سحب لوكاس طاولة ووضعها في الشمس على العشب. وفيما كان يتكلم، تأمل بريشت هذا الرجل الجسيم ونظاراته الضخمة وقميصه وأكمامه القصيرة وأصابعه الخشنة وتذكر أن بابا النقد الماركسي هذا ما كف عن شن الهجوم عليه منذ عشرين عاماً. ولكن فايغل وجهت له دعوة... فتح برشت دفتراً ودوّن بعض الأفكار لمسرحيته كوريولان وهو يفكر: لوكاس هذا، المنبهر بمسألة الانحطاط لا يفقه شيئاً. بالنسبة إليه، الصراع الطبقي مجرد مسألة جوفاء...

ثم، قرابة الظهيرة، تصاعدت الأبخرة المتعانقة على مائدة الحديقة. تحدث برشت عن أجمات الورد. أحضرت فايغل سلة الفراولة وراحت تغسل الفاكهة وتنزع ذيلها. سيجار برشت يدخن

وحده على طرف المائدة... والغيوم الشاهقة تتحلى بما يكفي من اللياقة لئلا تغطي قلب البحيرة.

في الزريبة، يراقب تيو بيلا تحركات سكان البيت. في الداخل، تجرب ماريا معاطف الفرو التي تخص فايغل، وأساورها، وأقراطها، وياقة من فرو الثعلب. تبسط منديلاً لتشم عطر اللاوند. ثم، تقصد الغابة، وروائحها الصمغية، تخلع ثيابها، ترتدي مايوه السباحة، وتغطس في المياه الخضراء. غطستها لا تشتت انتباه برشت ولوكاس. لوكاس يمص طرف إطار نظاراته الضخمة التي اشتراها من موسكو. برشت يرمق المنفضة منبهراً. الدخان الرفيع يتصاعد كالخيط. لوالب، دوائر، تمزقات. ما أكثر الرماد. إبنه البكر الذي قضى نحبه على الجبهة الروسية، مارغاريتي شتيفن التي توفيت في أحد مشافي موسكو، كل الممثلين الأموات، وأولئك الذين ما زالوا على قيد الحياة اليوم، مسلولين، في أروقة البرلينر أنسامبل... لقد حوَّل هتلر بلده إلى مشهد بلون الرماد. النزعة السلمية غير مستحبة في المعسكرين الشرقي والغربي. المنفضة ما زالت تدخن. يناولها برشت لماريا التي عادت من سباحتها، وهي تفرغها في سلة مهملات، ولا تعلم أن أكوام الرماد بدأت تملأ رأس برشت.

يشتد القيظ بعد الظهر، تتلألأ البحيرة، يمسح ضابطا الاستخبارات المشهد بمنظارهما.

يتفحص هانز وجه برشت، أسفل الخدين، التهدل الطفيف في الشفة السفلية. يشبه كل أولئك الكهول المقوسة ظهورهم قليلاً والناعسين على مقعد عمومي، في آخر القرية، بنظرتهم الفارغة. لا يستطيع هانز أن يمتنع عن التحديق في ذلك الوجه الثقيل، المترهل، والشعر المبعثر الذي توحي خصلاته القصيرة، الملتصقة بالصدغين، بامبراطور روماني استهلكته الملذات. رأى أنه وجه قناع.

تدل مراقبته لإيماءات رأسيهما الخفيفة على إلفة أعظم مما ترغب

ماريا بالإعتراف بها بينها وبين برشت. في دائرة المنظار المزدوجة المائلة للزرقة، يخال المرء أنه يسمع حتى رفع الكلفة والمرح، بينما يظل برشت نائياً ورائقاً إنما مكترثاً لمفاتن النمساوية الحسناء. حتى الساعة، لم تكن ثرثارة جداً.

في هذه الساعة من النهار، كل شيء معلَّق، والهواء ساكن. دخلت ماريا إلى البيت. في حجرة الملابس المتاخمة لغرفة برشت، بين السترات الرمادية التي تتدلى على العلاقات، تفتح القفل الصغير المزود برقم سري لصندوق، تخرج كومة من الأوراق. بعد أن وضعتها على فتحة الكوة الضيقة، راحت تصورها. خط برشت المنتظم. أزرق ومدور...

وراء أشجار التنوب، تتعالى الأصوات الفتية لجوقة برشت، بعيداً جداً صوب الأشجار. تشعر ماريا بحضور أشبه بظلال تتحرك. تلتصق بالحائط. ولما لم يحصل شيء، أرجعت الأوراق بعناية إلى الصندوق الرمادي، قامت بتمويه الرقم السري للقفل، حركت رافعة آلة التصوير لإعادة لف الفيلم، وأعادت الجهاز إلى علبته الجلدية. تخفي آلة الكوداك تحت الوشاحات المبسوطة في أسفل حقيبتها القماشية. عندما خرجت إلى الحديقة، كان الجو دبقاً على نحو غريب؛ لمحت فايغل، مسترخية على كرسي طويل، تحت أشجار السنديان، تملأ خانة الكلمات المتقاطعة بقلم أحمر. ارتعشت شعلة الشموع.

سألتها هيلين:

ـ هل ترغبين بتناول الشاي؟

ـ لا، شكراً.

أغمضت هيلين فايغل عينيها ثم فتحتهما وسألتها:

ـ ألا ترين أنها ليلة جميلة؟

ـ جميلة جداً.

أضافت:

ـ في بقعة رائعة الجمال.

ـ هل سبق لك أن زرت بوكوف؟

ـ لا، إطلاقاً.

أشارت هيلين: ـ يطلقون عليها إسم "سويسرا البراندبورغية".

ـ حقاً؟

ـ أجل، سويسرا البراندبورغية...

خيم الصمت ثم قالت هيلين فايغل:

ـ ماذا؟

أجابت ماريا أيش: ـ لم أقل شيئاً.

ـ ظننت أنك تتكلمين.

ـ لا، لم أقل شيئاً.

سألتها هيلين فايغل: ـ ما رأيك بكيتي رايشل؟

ـ إنها جذابة.

ـ أجل، أعتقد ذلك.

سمعت الأصوات الفتية تتمرن على جوقة برشت بإدارة بول ديساو.

قالت ماريا أيش، وهي ترفع ثوبها على ركبتيها: ـ ما أروع هذا المكان.

أجابت هيلين فايغل: ـ أجل.

ـ كنت غافية...

ـ لا، أبداً.

ران صمت طويل آخر، وسكتت الأصوات.

سألتها هيلين فايغل: ـ ماذا يفعل برشت؟

ـ يقرأ هوراس.

ـ يتظاهر بذلك.

ـ لا ، إنه يقرأ هوراس بالفعل.

ـ إنه يقرأ روايات بوليسية أميركية.

ـ أميركية؟ ظننت أنه يفضل الروايات الإنكليزية.

ـ الأميركية.

صمت.

ـ هل تعتقدين أن أداء كيتي رايشل سيكون مرضياً في مسرحية أورفاوست؟

ـ بدون شك...

ـ إذن ستكون مرضية...

أشارت هيلين فايغل: ـ قرر برشت أنها ستكون مرضية في أدائها.

ـ إذن ستكون كذلك.

سألتها هيلين فايغل: ـ ولكن، أنتِ، شخصياً، هل تعتبرين أداءها مرضياً؟

ـ لا.

علقت هيلين فايغل: ـ ما أجمل هذه الليلة!

5

لماذا كان الحلم نفسه يراود هانز ترو منذ بضع ليالٍ؟ يتجول في مقصف قطار أزرق ومخملي تنيره مصابيح بيضاء. قوائم الطعام مكتوبة بالروسية، والقطار متوجه إلى موسكو. يتناول القهوة مع ضابط سوفياتي يرتدي معطفاً مشبوهاً، يجلس قبالته ويعلن له موت أبيه.

ـ ولكن أبي توفي منذ ست سنوات.

ـ لا، لقد توفي هذا الصباح.

كان صوت القطار الرتيب يوحي بأنه يسير على أموات. سجل الضابط رد فعل هانز، ورفع نظره نحوه قائلاً:

ـ ألا تشعر بشيء بسبب وفاة والدك؟

ثم ينصرف ولا يسع هانز سوى التفكير بأنه يمضي إلى حفلة كئيبة، وأنه سوف يشارك في فسق من الشعارات الرسمية. كانت كل مدن المعسكر الشرقي متعطشة للشعارات. الجميع يهتم بالأخلاق، كل يريد حياكة قماشة جديدة حمراء قانية لإخفاء اللون الأحمر في الأعلام التي يعلوها الصليب المعقوف. الاستعجال للمضي إلى حفلة فسق جديدة في موسكو. رأى هانز أن آلهة موسكو سوف تصب غضبها على برلين. تساءل إن كانت برلين، مثل طروادة، لن تتذمر للمرة الثانية. ثم استيقظ ولاحظ أنه متأثر بالنواح والغضب في التراجيديا الإغريقية لكثرة ما تصفح مسرحية أنتيغونا وراجع ملاحظات ماريا وغاص في دفاتر برشت. غفا مجدداً فألفى نفسه في القطار نفسه.

يخترق القطار الجروف الضبابية في السهب ثم في الظلمات. أنفاق، مساحات وهادية. صفائح ثلجية. غابات من الأشجار العارية. أعمدة مهملة تحت سماء قطنية، أسلاك كهربائية يتيمة. ورش بناء على جسور: موسكو تلوح في الأفق...

فيما كان هانز يكمل شرب قهوته، يعود الضابط الروسي، يضع قبعته العسكرية على الطاولة ويعلن:

ـ لقد أخطأنا فوالدك توفي بالفعل منذ ست سنوات. أعذرنا.

سمع هانز قرقعة الجزم العسكرية لعناصر قوات الهجوم النازية يصعدون إلى مكتب والده.

كشف منحنى السكة الحديدية عن محطة قطار سوفياتية كبيرة. حشد من البزات العسكرية يغني، باقات من الزهور تقدمها نساء

تغطي شعورهن المناديل، خبز لذيذ وشديد البياض يُقدَّم إلى "الرفيق" هانز ترو من برلين.

تذكر، إذ استيقظ بفم جاف، جوقات نسائية أخرى. كان في الثامنة عشرة، والفلاحات في قريته مكلمبورغ ينظرن إليه يتسلق تلة مغطاة بالثلوج ليرمي بمهابة ساكسوفوناً. يرمي بهذا الرمز لإخفاقه الموسيقي. القرية كلها تراقبه، وكذلك أمه وأخوه.

حزينين.

رفع الساكسوفون وأطلق صرخةً ملقياً به في كومة من القاذورات المغطاة بالثلج. كان المشهد يلمع بسبب الهواء القارص. لن يصبح موسيقياً عظيماً أبداً.

لماذا تلاحق هانز منذ بعض الوقت ذكريات طفولته وغرفته العلوية والهواء القارص والأغطية الرطبة والسرير المتقشف من الخشب الملمَّع والصمت والحطب الذي يفرقع في المدفئة والورق الجداري المنتفخ؟

بعد منتصف الليل، كان يقرع أحياناً الباب المزدوج لغرفة أمه، وقد افترسته الرطوبة كأنه سجين في كفن، متيقظ الضمير، متنبه الأحاسيس، متجمداً. كانت تكتب على طاولة خشبية وأمامها مصباح خزفي قديم. لا تزيح أبداً الستائر الثقيلة، ثمة نقاط ضوئية غير معروف مصدرها تتلألأ بعيداً. تكتب والدة هانز وتدون الملاحظات على رزم من الأوراق، وهانز يستأنف هذا التقليد ويمضي حياته وسط رزم من الأوراق، في ضيق الليل، في سهر الأرق، للابتعاد عن غثاثة النهارات الضوضائية والعودة إلى ضياء ضميره وإلى عزلته.

كان بوده أن يبوح بكل ذلك لماريا، نزهاته في الحقول الرملية، الطبيعة فيها من التسطيح بحيث تقتصر على الخطوط المتلألئة، الخفة الخيالية للمواقع العوسجية، وأشجارالصفصاف الشفافة المظهر، والغيوم الشديدة الجلاء التي توحي بعدم مضيِّها إلى أي مكان محدد

وبإخفائها رسائل غامضة بسبب جمودها الطافي. كان بوده أن يبوح لماريا بكل هذه التفاصيل.

لماذا يعود، منذ عرفها، للسير في المنحدر الخفي لتلك الغابة من أشجار الصفصاف، وكأن الأمر يتعلق بإحياء روابط مستترة؟ لماذا يحيي الصلة بربوع طفولته حين يفتح مجدداً ملف ماريا وملاحظاتها السرية التي لا تطلعه على أمور لا يعرفها أصلاً؟

كانت السكينة المهدمة للحقول الخاوية ترافق جولاته في برلين ليلاً إذ يقفل عائداً إلى بيته. رتابة مستنقعات مكلمبورغ، مواقع نبات الخلنج الإسفنجي التي تظلم، كلها ترجع، بقوة ودقة مدهشتين، ولها علاقة بماريا. حتى الرشح المنتظم لخيط ماء بمحاذاة القناة يفتح برتابته فضاء سرياً يتمتم شيئاً أساسياً ومستتراً؛ لماذا تسكنه الهامة الهزيلة لبعض أشجار السندر كأن الأمر يتعلق بهامة ماريا؟

هضاب الوطن الرملية، قناة مستقيمة كالطريق تشطر فصول الصيف المديدة إلى شطرين؛ صوت أمه وأخيه، كل شي يرجع، مغشّى وقريباً.

6

دخل تيو بيلا المكتب البرليني، تخفف من قبعته ومعطفه، ووضع على المكتب مذكرة جديدة، تصريحاً جديداً تعلوه أختام ما زال الحبر السميك يلمع عليها.

ـ هاك! أصبحت قائمة الصحف المسموحة أطول.

كانت الملاحظة التالية تقول: "يعمل برشت حالياً في بوكوف، 29 زيشتراسي، حيث عليه أن يصطحب قائمة الصحف والمجلات

المذكورة أدناه". أضيفت تايم و نيوزويك ولايف ولوموند إلى القائمة السابقة من الصحف الألمانية.

كان تيو بيلا يحمل كذلك ظرفاً أسمر أرسله مركز شومانشتراسي سحب منه مجموعة من التقارير الموقعة من مخبر يدعى إيزوت. بالإضافة إلى مذكرة مقتضبة تتساءل بعبارات حادة عن مسألة حيازة برشت لرقم هاتف أوتو كاتز، وهو عميل للأممية الشيوعية يشتبه بأنه "خائن تروتسكي"، يوجد تقريران حول صور تخطيط القلب مؤرخان في شهر أيار/ماي، سلمهما الطبيب موليراي من المشفى الحكومي. لن يعيش برشت أكثر من بضعة أشهر. ثم أخرج تيو تقريراً من ثلاث صفحات حول مسودة وصية محررة بالإنكليزية.

سأل هانز: ـ لماذا هي محررة بالإنكليزية؟

أجاب تيو ممازحاً: ـ إنها البلوتوقراطية الأنغلوساكسونية، تسلط الأثرياء. في كل الأحوال، يوصي بكل ثروته لهيلين فايغل. أنظر إلى التاريخ.

ـ 18 أيار/ماي، غداة تخطيط القلب...

قلَّب هانز في الأوراق. ترث ابنته باربارة منزل بوكوف، وابنه شتيفان عائدات عروض مسرحياته في الولايات المتحدة.

ـ سوف يكون لديه من المال ما يسدد به ثمن وجبة طعام!

تحصل معاونته روث برلاو على خمسين ألف كورونة دانمركية شرط أن تشتري بيتاً يعود، بعد وفاتها، إلى هيلين فايغل...

لما عاد تيو بفنجاني قهوة، كان هانز قد أكمل قراءة الوصية.

ـ لا شيء فيها لماريا أيش؟

ـ لا شيء.

ـ ألا يذكر اسمها؟

ـ أبداً.

كرَّر هانز: ـ ألن ترث ماريا أيش شيئاً؟

فرقعة سريعة للآلات الكاتبة في المكتب المجاور ثم همسات مخنوقة.

خلع تيو سترته وفك أزرار ياقة قميصه.

ـ وماذا عن تخطيط قلب برشت؟

ـ تصلب شرايين عام، تصلب الصمامات التاجية والأبهرية...

ـ هل لديه أي فرص بالنجاة؟

ـ إذا لم يتحرك، ولم يضاجع، ولم يغضب.

علّق تيو: ـ هذا غريب.

ـ ماذا؟

ـ... أن يهدر أشخاص مثله ما تبقى لديهم من طاقة ليحاولوا المضاجعة، وتعذيب الآخرين، واختراع قصص حمقاء.

أوضح هانز: ـ إنه يفعل ذلك باسم الفن. ألا تحب الفن يا تيو؟

ـ ليس لدي ما يناهض...

صحّح هانز: ـ ولكن ليس لديك ما يؤيد.

ـ الفنانون أشخاص لا يريدون أن ينضجوا...

ـ عندما أفكر أنه لم يكتب لها شيئاً في وصيته...

استرجع هانز مسودة الوصية ثم أغلق الملف ووضعه في حقيبة تيو.

قال: ـ تصطحبه في كيس السفر المعتاد.

ارتعشت يده، ورمق كل منهما الآخر، ثم سأله تيو:

ـ هل رأيتها مجدداً؟

ـ لا.

ـ تفكر بها؟

ـ أجل.

تناول تيو حقيبته الجلدية، وأعلن أن الأحاديث تدور في الأروقة عن أن أولبريشت لا بد أن ينال يوماً ما الوسام الإسباني لقدامى المحاربين. من جهة أخرى، ثمة معاون شاب لبرشت، يدعى مارتين بوهل، يجيد نظم القصائد بأسلوب برشت يحظى بالتشجيع في محاكاته تلك ويخضع للمراقبة. لربما تستغل موهبته بعد رحيل المعلم. نسب إليه امتياز التجول في برلين حاملاً آلة كاتبة اشتريت من هوليوود. ثمة كذلك شائعات عن تفتيش لجهاز أمن الدولة في أوائل أيلول/سبتمبر، وموسكو تبعث الرسائل أكثر من العادة.

شعر هانز بالعزلة في ضباب دامس؛ أصبحت حياته شيئاً أقرب إلى الخيال. تبتعد الوعود بمستقبل زاهر، ويتخذ الماضي، على العكس، مظهراً مقلقاً. يرى مجدداً والده وابتسامته الخائبة حين ارتقى رجال الأمن السلم، قرقعة الجزم العسكرية، صيحاتهم المقتضبة، الخادمات المروَّعات، وأب يبتسم لابنه...

ـ هل تعرفه؟

ـ من؟

ـ مارتن بوهل.

انتفض هانز.

ـ آه... لا...

ـ هل تنزعج حين أكلمك؟

ـ لا.

ـ فهمت.

ـ صورته تتنقل في المكاتب منذ بعض الوقت، والمساعي جارية للتحقق من نشاطه السابق في لايبزغ.

ـ من؟

ـ بوهل، مارتن بوهل...

ـ آه، أجل.

ـ أنت بخير؟

أجاب هانز: ـ أجل.

ـ ألست عصبياً بعض الشيء؟

ـ لا.

ـ أتعلم ما الذي قد يريحك؟ إركب السيارة، خذ معك بطانية ومنظاراً واذهب إلى بوكوف. مجرد تفتيش روتيني لمراقبة محميتك. أيزعجك أن أشرب قهوتك؟

ـ لا.

7

تشق سيارة المرسيدس السوداء غابة من الأذرع الممتدة، بحراً من البزات السوداء، السواعد الحمراء الداكنة، ثم تمر القمصان البنية. كان ذلك في ميونيخ، قبل منفاه، كم كان ذلك سحيقاً... استيقظ برشت، سمع المطر يقرقع. نظر إلى المنبه. يملأ بريق رمادي الفضاء. تعوم الحجرة في ذلك النور الغسقي الذي يتفكك إلى بساط قاتم ومتداخل؛ ظلال شجرة دردار على مكتبه. كباسة الأوراق، سلة الأوراق وألواحها الخشبية. كم يطيب له أن يدع العصر ينساب في حركته ومعالمه وساعاته. تأمل تنورة ماريا المرمية على الأريكة، الحزام المجدول، والشعار الصغير، اللون الرمادي الفاتح لقميصها، الأصوات في الحديقة، الذكريات التي تشبه بطاقات بريدية مضيئة ومترعة بالسباحة، والضحكات، والشبابيك النافرة في سانتا مونيكا... الظلال الخضراء والغرانيتية لباب المطبخ...

يحرر مسودة رسالة لإدارة شرطة الحدود في برلين. يشكو من

كثرة التفتيش عند الحواجز بين برلين وبوكوف، لا سيما في هوبيغارتن.

مضايقات، تحقق من الأوراق الثبوتية، ضرورة الحصول على تصريحات خاصة لنقل آلة الكتابة الأميركية، والصحف في صندوق السيارة، وملفات الصور الفوتوغرافية التي تخص معاونته روث برلاو. يشكو بشكل خاص من النبرة العنيفة التي تتميز بها الشرطة الألمانية. يطالب بتغيير هذه النبرة معه، والتفتيش المتكرر لصندوق سيارته، والتحقق من أوراقه الثبوتية، هو الذي كتب مرةً: "جواز السفر أنبل ما عند الإنسان"...، ويختم رسالته كما يلي: "إفهموني، أنا لا أنتقد فائدة التفتيش"، ويذيل رسالته بالعبارة التالية: "مع خالص مشاعري الاشتراكية".

خلف تبجحات أولبريشت وجماعته، البؤس البيروقراطي الألماني الوحيد والأوحد، مزيج من اليأس المحموم والرقابة على العقول، الإستعراضات العسكرية نفسها، الإسفافات عينها، العنف، الشك، الإنحلال، حفلات السكر في الحانات لم تتغير منذ فاوست حتى حانات ميونيخ ؛ واليوم، الاجترارات إياها أمام الميكروفونات، أنماط التفكير الجديدة نسخة بالضبط عن النمط القديم، الجمهور البرجوازي الصغير الذي لا يستوعب الجدلية، الجمهور الذي يرغب دائماً بالأعمال الكلاسيكية. لا انتفاضة ثورية، لا أتون إيروتيكي...

ترتعش الظلال على السقف. تلوح فصول صيف أخرى. وضعت هيلين فايغل للمرة الأولى زجاجات نظارات مدورة يجعلها إطارها المعدني تلوح كمطرِّزة محترفة ؛ الأولاد خلال فترة الطفولة، بربارة وشتيفان يتسلقان طاولة الحديقة في سفوبوشتراند. تمتد ظلال فصول الصيف تلك على شتائه الداخلي. ملمس بلاطات المطبخ الباردة، التدفق المتواصل الأبيض والأخضر للأمواج. شتيفان الهزيل القامة بالمايوه يركض في الحديقة، المقعد المهترىء حيث كتب مرة:

"لاجئاً تحت السقف الدانمركي، سقف القصب، أصدقائي مازلت أتابع معرككتم". ولكن الأصدقاء رحلوا اليوم. يبقى الجزء المتناهي الصغر لقوقعة حلزون على ورقة.

يضطرب بسبب رائحة الأتربة الآتية من النافذة المشرعة. في فترة العصر تلك، قلب أحدهم التربة. يسمع صوت هيلين فايغل الجاف والمكتوم يعطي الأوامر. فايغل المقتنعة أن لا شيء مخيف يمكن أن يحصل في هذا العالم الشيوعي البرليني لأنها تحمل البطاقة الحزبية وتملك مفاتيح مسرح برلينر أنسامبل. باستثناء برنامج العروض المسرحية، يعلم برشت أنه لا يوجد شيء، لا جمهور ولا دعم، لا شيء سوى رجال أولبريشت الذين يتجسسون، ويراقبون، ويكتبون التقارير، ويؤرشفون لحساب موسكو...

بينما كان برشت مجتمعاً على انفراد بهانز أيزلر للعمل على موسيقى مسرحية فاوست، أغلقت ماريا أيش وعاء الدهان الأبيض بعد فروغها من إعادة طلاء باب الدفيئة. امتطت دراجة هيلين فايغل واجتازت ثلاثة كيلومترات على أرض رملية محاذية لغابة من أشجار التنوب. تنبعث الرائحة الجافة والصمغية من طبقات الهواء الساخن. بضع قطرات من الماء على قماش قبعتها، العجلة الخلفية وصوت احتكاكها، ثم الإنحدار الطويل المبهج، والغيوم التي انخفضت حتى خط الأفق، الريح التي تبعثر شعرها وتنفخ ثوبها، ثم الغوص في الغابة والمضاءة والسيارة الصغيرة السوداء التي تحمل لوحة تسجيل برلينية وتلوح مثل شيفروليه قديمة. في المرآة الخلفية، تميز ماريا المفكرة المقوّاة الحمراء الداكنة التي تخص هانز ترو.

تترجل عن الدراجة، تسلك درباً وتقتفي الأخدود العشبي. تبحث عن مخبأ ضابطي الاستخبارات، ثم يخطر لها أن لا مصلحة لها في مصادفتهما. تمتطي الدراجة وتسلك الدرب مجدداً، تعاود المرور أمام

السيارة تحدوها رغبة طفولية بترك قطعة من الورق تحت المساحة الأمامية لتقول لهما إنها تعرفت عليهما.

تقود الدراجة بمحاذاة الجنائن الغناء. أوراق أشجار التفاح اليابسة، الصيف وحفيفه. التخلي عن الفن المسرحي.

التحول إلى معلمة في بلدة كنائسها خاوية، تقع في أحد تلك الوديان التي ترقد فيها أجيال ميتة تنتظر أجيالاً جديدة. تفضل السكينة والنوم الحافل بالحسابات اللئيمة. تدرك فجأة كم هي كثيرة الحدادات، ثم تجتاحها الرغبة. تريد رؤيته وتبحث بحثاً محموماً في جزدانها عن رقم هاتفه، هذا وإما تعود إلى السيارة وتترك كلمة تحت المسَّاحة.

سُمع وقع خطى خفيف على العشب، شظايا بيضاء لقميص، ثم تراءى هانز ترو. تفحصت ماريا وجهه، مستغربة اسمراره. لاحظت أنه مرهق، ثم تلاشى هذا الإنطباع بفضل ابتسامته كأنه خارج من ليلة طويلة منعشة.

ظل هانز وماريا واقفين تقريباً بدون أن يحركا ساكناً. تركت ماريا جزدانها مفتوحاً وأسندت دراجتها على ردفها. قال لها هانز: ـ يخيل لي أنني متطفل .

أجابت ماريا: ـ هذه مهنتك.

ـ إذا شئنا...

عاش كل منهما للحظة خاطفة سحر لقائهما. ثم بادرته ماريا:

ـ أرافقك إلى السيارة.

ـ لا أظن أن ذلك...

ـ ماذا؟

ـ ضروري بالفعل...

قالت بمرح: ـ وهذا أفضل.

تقدما وسط الاصفرار الكاسح للحقل الذي لاح محروقاً. صارت

ماريا تعرج. قالت: "إنه صندلي". نزعت صندلها المجدول الحبال وناولته لهانز كي يتفحصه.

ـ فيه شيء نافر.

توقف الزمن للحظة بينهما ؛ أسند الصندل إلى حجر وضربه بصوانة من تلك التي يلمها المرء في الدروب الوعرة.

ـ هاك...

سألته: ـ أهذا كل شيء؟

اجتاح هانز إحساس غريب بالوحدة، أحس بألم خاطف حاد أمام ضياء ذلك الوجه الذي لا يزن شيئاً. تبدو كأن لا وزن لها، وهذا ما يثير ذهوله. سمع صوتها يقول:

ـ ألا تشعر بالملل؟

ـ لماذا؟ ألأنني أراقبك؟

ـ أجل.

ـ إنني أحميك كذلك.

سألته: ـ ماذا ستفعل بعد خمس سنوات؟

ـ سوف أنغمس أكثر في متاهة البيروقراطية الشاقة. وأنت؟

ـ أنا؟

ـ أجل. يكون برشت قد توفي. لن تستطيعي الإقتران به.

ـ ما كانت هذه الفكرة لتخطر ببالي أصلاً.

بلغا السيارة. كان تيو بيلا قد استقر في المقعد الخلفي يقضم شطيرة ملفوفة بورق مكبرت.

كررت ماريا سؤالها: ـ وأنت، ماذا ستفعل؟

ـ غداً؟ سوف أطلع على تقرير ما يعلمني أن قسم التأشيرات في موسكو أصبح شديد التدقيق وعصبياً، ويذكر عدد العملاء السريين الذين استقالوا، وعدد السيارات التي عبرت القطاع الأميركي، وعدد لوحات السيارات التي جرى تصويرها أمام الفندق الذي ينزل فيه في

القطاع البريطاني الجنرال شفيرين، مستشار أديناور، المكلف بالشؤون العسكرية.

أضاف:

ـ سوف أكون هنا بعد خمسين عاماً.

ـ لماذا؟

تردد ورأى أن لا مكان يلتقيان فيه الآن، غداً، بالصدفة في حفل استقبال، ولا حتى في أحد مسابح الأحياء الخارجية لجهة بوتسدام. كان تيو بيلا منحنياً بشكل وضوح، يحاول الإصغاء إلى الحديث عبر النافذة التي أخفض زجاجها.

ـ لماذا لا نلتقي، يمكنك بكل بساطة أن تأتي في الصباح لحضور التمارين.

ـ أجل، يمكنني القيام بذلك ولكنني لن أفعل.

فتح هانز باب السيارة لجهة مقعد السائق.

ـ لقد عشت مع امرأة، ثم مع اثنتين. لن تكون خطوة صائبة.

اقتربت من زجاج النافذة، وعلى نحوغريب، أغلق هو باب السيارة.

ـ سوف تعود إلى هناك؟

ـ أجل.

سُمع الصدى الملح للسيارة التي تخرخر تحت الأشجار وتتعثر على المطبات، وكذلك الإحساس بالتخلي، الموسيقى القوية والمؤلمة لعصر قيظي، وهناك، طبطبة الماء، بعض السابحين على الأرجح. لماذا كان كل شيء مؤلماً للغاية، لماذا هذا المنفى، هذه الوحدة، هذا الخواء؟ تساءلت ماريا أي منبه سوف يرن يوماً. ولكن كل شيء كان يكتنفه البياض، إذ راحت تدفع دراجتها، بسبب الحر كلما اقتربت من البحيرة. سمعت أصوات السابحين وخبط الأيدي على الكرة الطائرة.

توغلت في البيت، ارتدت المايوه ومضت لتسبح. تأملت أشجار التنوب، وهي تسبح نحو الصفصاف، وتراكم الهضاب، والسطوح المخضرة أو السمراء، تلك السكينة الريفية التي تجتاحها مع حلول المساء وتبعث فيها السكينة.

بعد العشاء، غادر برشت المائدة وفارق المدعوين. وضع سترته على كتفيه واقترب من البحيرة. الممرات المليئة بالحشرات، الخطوط القاتمة لبعض أوراق الشجر.

كانت الوحدة الليلية تحفل ببريق غامض.

تلوح البحيرة كأنها تحمل وداعاً. اكتنفه إبهام كل شيء، الإغفال المبارك لكل شيء، وحمل إليه حزناً خفيفاً جديداً.

كل شيء يذوب، موسيقى العالم الداخلي والعالم الخارجي، ذائبة، انتقالية.

كان برشت جزيرة، جزيرة محاطة بالأعشاب، والقصب، والأشجار الباسقة، وهي جوهر حلم لم يشأ أبداً أن يعيره أهمية. اجتاح ضميره كونٌ أراد أن ينزع عنه تعتيمه. لم يتخل عن حلمه الأرضي ولكن ترددات موته تحيق به وتخنقه. شعر بالكوكب الرمادي يمضي بدون أمل نحو عالم لن يكون عالمه، ولن يذكره. التفت التفاتة خفيفة. كانت مصابيح البيت مضاءة، ولمح أحدهم (هل كانت هيلي أم ماريا؟) يغسل الأطباق في دست.

8

تناولت ماريا ورقتين: خط برشت الأزرق، مسودات يومياته التي ينعت فيها أولبريشت وزمرته بال "متقلبين" و"السطحيين" و"المغرورين". تكبس على زر الكاميرا خمس مرات. تعيد لفَّ الفيلم وتتسلل إلى الغرفة. تخفي آلة التصوير في حقيبتها القماشية وهي تلحس اللسان الصغير لفيلم الكوداك وتختمه بالورق اللاصق.

لاحقاً، تخرج إلى الهواء الطلق. درج المدخل وكرتا الباطون. المائدة الخشبية الطويلة، الكراسي الفارغة بأقمشتها التي تحتفظ أحياناً بآثار الأجساد التي جلست عليها. ذلك النور الشبيه بشراب النعناع، تلك الأقداح الفارغة التي توحي بكوكتيل من الأشباح. الضيوف: كيتي رايشل، وإيغون مونك، وهانز أيزلر. تطوي هيلين فايغل الصحف البرلينية تحت السطح الأخضر والأعمدة الصغيرة لكشك قديم الطراز. تلمح ماريا جالسةً على المرسى تلامس الماء بقدميها. ظنت أنها تشعر بالملل. فنهضت وأومأت لها:

ـ ماريا؟ ماريا...

التفتت ماريا. بدت يافعة في نور الصباح بثوبها الأسود الذي تزينه أزهار صغيرة. ارتقت ماريا الدرجات، بلغت الكشك، وسحبت أريكة من الخيزران.

سألتها فايغل: ـ كيف الحال؟

خيم صمت وجيز مؤلم ارتعش بين المرأتين.

قالت لها هيلين: ـ أنت فاتنة.

أجابت ماريا التي شعرت بالخجل والارتباك بغباء: ـ أجل.

ـ هل ترغبين بتناول الشمبانيا؟

ـ أجل...

أخرجت هيلين زجاجة الشمبانيا من المرشة المليئة بالماء البارد.

تلألأ القدحان.

ـ برشت معجب بشبابك.

قالت ماريا: ـ أجل، إنه معجب عموماً بالشباب.

فكرت ماريا أن عليها التعليق بأن النهار مشمس والحر ليس شديداً.

بادرت قائلة:

ـ يا لهذا النهار المشمس، الحر ليس شديداً.

قالت هيلين: ـ بالفعل، تملكين جسداً صغيراً فاتناً.

ابتسمت ماريا بدون أن تعرف السبب.

تابعت هيلين الكلام:

ـ قال لي برشت إن جسدي رائع.

أضافت:

ـ عام 1929.

ران الصمت مجدداً.

قالت هيلين:

ـ قال لي برشت: "جسدك رائع يستحق أن يحفظ في مدرج للطب التشريحي". ألم يقل لك برشت ذلك؟

ـ لا...لا...لا أظن...

ـ أنا جثته. تأنيب الضمير يكون دائماً جثة. أنظري إلى صدغيَّ، وجبهتي، أنا شبحه العظمي. ولكني كنت فاتنة في صباي.

لمعت الشمس ثم كمدت وتوارت خلف الغيمة.

قالت هيلين: ـ قدمي لي التهاني.

ـ على ماذا؟

ـ على عيشي معه كل ذلك الوقت.

قالت لها ماريا: ـ تهانيَّ.

ـ لم نعد في عام 1929، وسوف أفارقه.

ـ ماذا تقولين، الطلاق؟

ـ أجل، الطلاق.

خلال السهرة، وسط مرح المدعوين، سألت هيلين فايغل:

ـ وأنت يا ماريا، ألا تعرفين قصة مضحكة؟

ـ لا.

ـ الجميع يعرف ولو قصة مضحكة واحدة.

ـ ألا تسرد القصص المضحكة في فيينا؟ قصص عن اليهود؟

رددت ماريا، تعبيراً عن حسن نيتها، دعابة عن اليهود رواها لها أحد الفنيين في المسرح القومي، ولكنها تلعثمت في سردها.

علقت هيلين: ـ غريبة قصتك. أليست معادية للسامية؟

ـ ولكن...

ـ إنها قصة معادية للسامية، أليس كذلك؟

ـ إنك تسعين لتلطيخ سمعتي أمام الأشخاص الجالسين حول هذه المائدة...

صرخت هيلين فايغل: ـ أشخاص؟ ضيوفنا؟ أشخاص؟ تنعتيننا بالأشخاص؟... ماذا تكونين بدوننا؟ مجرد ممثلة أرياف...

ترددت ماريا ثم وضعت فوطتها جانباً وغادرت المائدة. سمع الباب الزجاجي ينصفق. سأل برشت:

ـ من يرغب بتدخين السيجار؟

وأضاف:

ـ ليست معادية للسامية... هيلي!... كفي عن ذلك...

ـ كان أبوها معادياً للسامية، وزوجها معاد للسامية... ألا أستطيع أن أمازحها قليلاً؟... أم لا؟

أعتم الليل وسط البحيرة. أحضرت بعض المصابيح والشموع. أشعلت نواسات غريبة لحفلة خلوية على الضفة الأخرى من البحيرة.

انزلق مركب شراعي نحيل، بدنه أزرق داكن وراء شجر السنديان. كانت انعكاسات منمنمة تجري على بدنه مثل شظايا معدن نادر.

9

كانت رسالة برشت التي يشكو فيها من خضوعه للتفتيش المتواصل على حاجز هوبيغارتن، بين برلين وبوكوف، موضوعة على مكتب هانز ترو. يحاول تيو قراءة الملاحظات المدونة على هامش نص مسرحية كوريولان لبرشت، وهي وثيقة سوف ترسل في ملفها الرمادي إلى قسم المحفوظات في الطابق العلوي لمكاتب الشتازي، الاستخبارات الألمانية الشرقية الجديدة.

ناول هانز الرسالة إلى تيو بيلا الذي دار على أعقابه واقترب من النافذة ليتسنى له فك خط برشت بصورة أفضل.

قرأ تيو الورقتين، وقد وضع ركبته على المشعاع الذي كان بالكاد يدفىء الحجرة. في الجهة الأخرى من النافذة، تحرُّر مداخن بعيدة بتكاسل سحابة من الدخان وسط نور الصباح الشاحب.

علق تيو: ـ يؤسفني أن أعلم ذلك.

ـ وأنا أيضاً.

ـ في نهاية المطاف، الأمر أقل خطورةً مما لو تعطلت آلته الكاتبة.

ـ إنها لا تتعطل أبداً.

قال تيو: ـ آه، أجل، لا شك أن نبرتنا العسكرية مملة بعض الشيء...

ـ نعم، نحن لا نتمتع بنبرة الكياسة البروسية القديمة.

ـ أحياناً، نأسف لذلك جميعاً.

ـ أجل، نأسف لذلك جميعاً.

ـ أجل، نبرة "أمن الدولة" تلك قد لا تكون لصالحنا...

ـ لا ، وقد لا تكون لصالحه...

ـ بعض الجنود الشبان ليسوا بارعين إطلاقاً.

ـ لم نعد نعيش في بروسيا فريديريك الثاني.

ـ حتى في بروسيا فريديريك الثاني، لم يكن بعض العسكريين معروفين بكياستهم...

ـ حقاً؟

ـ مثل هذه الرسائل يوجد منها مقطورات بحالها في الطابق العلوي... وفي المحفوظات...

ـ برشت هذا، كم يهدر طاقته! كان بوسعه كتابة مشهد جميل بدلاً من تبديد وقته في تحرير هذه الرسالة...

ـ لا أصدق أنه هدر كل هذا الحبر والورق والجهد...

ـ لدى قراءة رسالته ملياً، أرى أنها تفتقر إلى أية موهبة أدبية...

ـ قد يتساءل المرء إن كان هو الذي كتبها بالفعل.

ـ ماذا نفعل بهذه الرسالة؟

ـ نصنّفها.

رفع هانز عينيه وتأمل مداخن المصانع بعيداً، كانت السماء التي اشتدت رماديتها تتميز بازدحامها الغريب.

سوف تثلج بعد أربعة أشهر.عما قريب، الفحم في الموقد، الشاي الساخن، نقل الملفات إلى طابق آخر، المؤتمرات السرية في الطابق العلوي، المراكب الجنائزية المحمَّلة بالفحم، الأزمات

المتكررة بين أكاديمية الفنون والبرلينر أنسامبل، الأمة الفاضلة، نفاق الفنانين، الروتين اليومي...

10

استأنف تيو بيلا مراقبته. تلقى من موسكو منظاراً جديداً أكثر دقة. صار بإمكانه أن يرى برشت جالساً على مقعد، مستنداً إلى الجدار الحجري الصغير، وأن يلمح تفاصيل خشب المصاريع، والعبور المشع لماريا بثوب أحمر وأسود مصمم على الطريقة الإسبانية، المفارش والملاءات المعدة للغسيل، قلم حبر برشت الذي يحيل الورقة زرقاء. قال تيو في قرارة نفسه: في المرة القادمة التي ترسل لي موسكو منظاراً، سوف أستطيع القراءة مباشرة من خلال الورقة إذا كانت الأوراق موضوعة في الإتجاه الملائم.

أكثر من أي وقت مضى، كان برشت يشم رائحة محكمة التفتيش ويشعر بالتوتر السائد حول أولبريشت. تردد الصحف أن أديناور لا يكتفي بتشجيع القوات الأميركية على البقاء في ألمانيا لوقت طويل بل يطالب بنشر الأسلحة النووية في البلاد. كان جهاز هانز ترو قد حصل في جيوب صغيرة من ورق الصر على صور فوتوغرافية، غير واضحة في الواقع، لمدافع أوتوماتيكية من عيار 280 ملم متمركزة في أريزونا.

في الصحف الغربية، تعلن العناوين أن رئيس حكومة ألمانيا الشرقية، والتر أولبريشت، قد عزز وزارة جهاز أمن الدولة (المعروفة بالشتازي) وراح يوظف كل أسبوع مخبرين جدداً. فلا بد من تعيين مخبرين لكل مبنى، كل مجموعة من المنازل، كل ورشة، كل ثكنة،

كل لجنة ثقافية، كل حي جديد. أصبح هذا التنظيم الأخطبوطي تهديداً للجميع. رأى هانز أنه يعيش في عالم ينادي بالسلام ولكنه يفطن إلى أن الشمس قد تختفي في أية لحظة من سطوح المدينة، وتتوارى بسبب الضباب الرمادي الذي يتقدم كالموجة الهائلة، وأن الحر قد يخرج من الجدران، ويتغلغل في الثياب ويلصقها على الجلد. كانت الصورة المظلمة ـ المبهرة للشعلة النووية غالباً ما تطفو في ذهن هانز. عدم رؤية الشمس بعد اليوم، التفكير بأن وجه ماريا قد يختزل إلى ابتسامة امرأة شابة مطبوعة في الجص. كان ذلك يقض مضجعه، وكذلك يشغل باله أن بعض الشاحنات المغلفة بأغطية واقية تقل مجموعات من الرجال، المدنيين، إلى أسفل المبنى. كان عمال يصطحبون إلى القبو ويظلون جالسين على مقاعد، تحت النور الخافت لمصابيح كهربائية. وفي الرواق، يتجول كلب ذئب نابحاً، ممتثلاً لأوامر جندي روسي.

كان هانز على علم بالتنصت على المكالمات الهاتفية وبتفتيش الرسائل البريدية واستجواب الجيران للتحقق من الذين يعملون لحساب" الإمبريالية الشرسة". كانت محاكمات موسكو تثير قلق برشت، وكذلك قلق هانز ترو الذي يتلقى يومياً في البريد القادم من موسكو تعليمات ويكتشف اتهامات جديدة محتملة: كوزموبوليتية، صهيونية، انحرافية. تطلب مذكرة محررة على ورق رمادي ومصنفة "سري للغاية" من هانز ترو مراقبة هيلين فايغل بسبب أصولها اليهودية. اجتاحت هانز ترو موجة توجس، دفع بفنجان القهوة بعيداً، وقصد دورة المياه لتجعيد المذكرة ورميها في المرحاض. تساءل إن كان جهازه لن ينتهي بإدانة أبسط الأفراح الدنيوية وراح يراجع نفسه مراجعة مؤلمة. ولما نظر عبر الكوة، لمح أن الأسلاك الشائكة الجديدة بدأت تمتد حول المخيم العسكري واحتياطي الوقود الذي يملكه ؛ كم مرة سوف يدمرون برلين؟ كم مرة يمكن تدمير مدينة

مدمرة أصلاً؟ أجاب ضميره: قدر ما يشاؤون. البارود، الوقود، الرماد، الريح، كل ذلك يمكن أن يعصف ويهدأ ويعاود. فأعاد تزرير بزته. تبقى شجاعة الإنسان الشريف سره الدفين. سوف يصون حياة ماريا ولو اضطر للاستقالة من وظيفته. سوف يؤمن لها أوراقاً مزورة، وينقذ على الأقل شخصاً واحداً، لتنقذ حياتها، وتستعيد ابنتها لوتي مع العلم أنها أكثر من مفارقة أن يكون زوجها النازي، الفنان الاستعراضي المغمور، الوسيم بياقته البيضاء المقلوبة ونظاراته السوداء، في البرتغال، يحتسي نبيذاً حلواً على شاطىء مشمس. كان السفلة النازيون هم الذين يعيشون والأحياء، هنا، هم الذين يخافون.

يقال إن وزير الدولة دوليز يرمي ضاحكاً في سلة المهملات بمذكرات ستالين الدبلوماسية التي توصي بتوحيد ألمانيا. كان أي اقتراح "أمن جماعي"، وهو مفهوم سوفياتي، مرفوضاً.

في برلين، تشهد ورش إعادة البناء الكبرى تحركات عمالية واستياء. تدهور الوضع في بعض الأحياء ورفع رجال الأمن مذكرات تتحدث عن انتفاضة مرجحة الأمر الذي أدى إلى تصلب مواقف أولبريشت. وطلب من هانز ترو أن يتابع بشكل خاص تجاوزات "تلك الزمرة من السلميين" المتحلقة حول برشت الذي كان يفكر، في موقف غريب خارج عن التاريخ، حسب تقارير ماريا أيش، بالرحيل إلى الصين التي يحكمها ماو. ويقف برشت مشدوهاً أمام خارطة للصين معلقة في الممر الذي يؤدي إلى الحمام.

تتراكم التقارير بشأن الخروقات الشكلانية... ويشعر الجميع بقسوة تشديد الرقابة السياسية على الوسط الفني. في أوائل شهر آب/أوت، تعرض برشت لصدمة شديدة حين علم أن أكاديمية الفنون الجميلة، بقرار من اللجنة، طردت بصورة رسمية للغاية إرنست بوش، الممثل ـ المطرب العظيم، من دار النشر التي يتعامل معها.

استطاع تيو بيلا التحقق، من خلال منظاره، أن إرنست بوش

كان واقفاً في الشمس، بقميصه الرمادي، وسرواله الأسود، ينزع ثم يضع نظاراته مصغياً إلى برشت وهيلين فايغل اللذين يجلسان على مقعد مستند إلى أجمات الورد القديمة. كان الإنحرافيون اليمينيون ينزلون ضيوفاً على بوكوف.

من جهة أخرى، شددت ماريا للغاية في تقاريرها على القراءات "اليمينية" لبرشت الذي يخصص وقتاً طويلاً كل صباح لقراءة مجلات نيوزويك، وكويك، ومونشينيرإيلوستريرتي.

في إحدى الأمسيات، لاحظت ماريا أن برشت قفل بالمفتاح درجاً من دروج مكتبه. خلافاً لنصيحة هانز ترو الذي قال لها: "لا تتصلي هاتفياً على الإطلاق متى تعلق الأمر بمسألة دقيقة"، اتصلت هاتفياً من قرية بوكوف. قالت إنها بحاجة لمقابلة هانز ترو. ولكن تيو رد عليها باستخفاف أنه يكفي العثور على المفتاح ("لا بد أنه موجود في مكان ما")، وأن الدرج المذكور لا بد أن يحتوي على بعض الكشوف المصرفية ورسائل "بذيئة قليلاً"، وربما قصيدة إنحرافية ومريرة "لشخص بوسعه مضاجعة أجمل نساء النظام". ثم صعَّد لهجته مؤكداً لها أنه يريد، بانتظار ذلك، أن يعرف ماذا كان إرنست بوش يقول لبرشت وفايغل "حرفياً". وأخيراً، غمغم أنه من الأفضل بعد اليوم أن تتحاشى ماريا الإتصال هاتفياً "لأتفه الأسباب".

خطرت لماريا فكرة جنونية وهي العودة إلى برلين. كان عليها أن تقابل هانز ترو الذي لما كان قابلها بمثل ذلك الإستخفاف وذلك الازدراء. كان الوحيد الذي يعرف التجميع والتحليل والفرز والتوضيح والتصويب والإيمان بفضيلة الواجب وأفراحه. سئمت العيش في الابتذال، بين مفكرين مخربين كهول ومتدربين منافقين، يسعون فقط للحصول على المواقع والامتيازات. لقد توجه إليها هانز ترو لأنه خمن فيها "قلباً متوقداً"، وفي هذا الوسط الخبيث، كان الوحيد الذي يبدو أنه يهتم بمخبريه.

أثناء العشاء، وبخ برشت ماريا لأنها استعملت شفرات الحلاقة التي تخصه لحلاقة ساقيها.

ـ أرجوك يا ماريا، لا تلمسي شفراتي! لا أريد أن أكرر الملاحظة.

كفت الأحاديث حول مائدة الحديقة، ولم يعد يسمع سوى طنين نحلة كانت تغرق في إبريق الماء وهمس الزيزفون.

حاولت هيلين فايغل مواصلة الحديث. أشعلت الشموع. شعرت ماريا بأنها غريبة، ورأت أنها وقعت في مصيدة كتلك النحلة في الإبريق. سمعت فايغل وبرشت وإرنست بوش يضحكون. كانوا يقرأون كتيباً، جالسين على درج المدخل. قررت أن تأخذ سكيناً من المطبخ وتحطم قفل الدرج المغلق. لا بد أن تنجز مهمتها بأعصاب باردة.

كانت بقية السهرة متراخية. جلس الجميع صامتين حول المائدة يراقبون برشت يلعب الشطرنج، بينما الوقت يحلق مع الذباب. شعرت ماريا بأنها فقدت حظوتها نهائياً حين سألتها هيلين عن سبب عدم حيازتها للبطاقة الحزبية. ولكن من كان يحرم الآخر من حظوته؟ لعل ماريا هي التي كانت تقصي هؤلاء القوم الخبثاء. كانوا يتظاهرون جميعاً أنهم مهتمون بالطريقة التي سوف يحرك بها برشت حصانه...

فجأة، أرعدت السماء وبرد الجو. تسللت ماريا عبر الفناء نحو ذلك الباب الصغير الذي يقود مباشرة إلى المكتب المضاء بنواسة محاطة بورق أسمر متشقق. حاولت فتح الدرج ولاحظت أنه يكفي التربيت عليه ورفعه بتمرير يدها تحته ليتحرر مزلاج القفل.

اكتشفت مسودات رسائل برشت التي يشكو فيها إلى أولبريشت من الانتقادات في الاجتماعات الرسمية حول أسلوبه في اقتباس الأعمال الكلاسيكية. ثم، وجدت قوائم وكلاماً مفككاً تحت البطانة المخملية في الدرج.

فتحت ماريا ظرفاً من ورق الصر. كان يحوي تقارير مكتب

التحقيقات الفدرالي، لا سيما تقريراً مؤرخاً في 6 حزيران/ جوان 1944 (وهو تاريخ لا ينسى). يفيد العميل طومسون عن مقابلة مع القنصل التشيكي في لوس أنجلوس، إدوارد بينيش. كانت الشكوك تحوم حول مساعي برشت للحصول على جوازات سفر له ولأفراد أسرته من أجل العودة السريعة إلى أوروبا.

في 16 حزيران/ جوان، تفيد مذكرة أخرى لمكتب التحقيقات الفدرالي عن لقاء جرى بين برشت والقنصل الروسي، غريغوري كايفيتز. في ظرف أبيض سميك مقطوع جانبياً بضربة مقص، رسالة من روث برلاو مؤرخة في 26 تموز/ جويليه ومرسلة من باسيفيك باليسايد. استقلت الأسوجية الحسناء الحامل الطائرة من نيويورك لتضع مولودها في كاليفورنيا بجوار برشت. تخبر الأب العتيد أنها استقرت قرب منزل الممثل بيتر لوري (بطل فيلم \السيد الملعون)، في شاليه موتور هوتل. كان التوتر يشوب نبرة الرسالة. ويؤكد تقريران لذلك المدعو طومسون تأكيداً قاطعاً أن "الرجل القصير القامة الأسمر المعتمر قبعة والمرتدي سترة من القماش الرمادي" الذي زار شاليه موتور هوتل هو بالفعل المسرحي الماركسي برتولد برشت. وأخيراً، يشير تقرير أخير لمكتب التحقيقات الفدرالي أن طفلاً يدعى ميشال ولد بتاريخ 3 أيلول/ سبتمبر 1944 للممثلة الأسوجية روث برلاو، في عيادة أرز لبنان. وأضيف بقلم الرصاص، في الهامش، بخط عجول، أن المولود توفي بعد بضعة أيام.

أخفت ماريا هذه الوثائق في منشفة الحمام وأرجعت القطعة المخملية التي تبطن الدرج إلى مكانها. سوف تستغرق الوقت اللازم لتصويرها. كانت متأثرة بما اطلعت عليه.

من بين كل المدوَّنات والرسائل وقصاصات الصحف والقصائد التي وقعت بين يديها، كان هذا التقرير حول ولادة إبن برشت وروث برلاو هو الذي قلب كيانها. فكرت: عدم الإنجاب... أبداً... تلك هي

اللعنة الحقيقية. الرحيل عن ألمانيا الشرقية، وحيدة، يعكس بالتأكيد الفشل. الفشل السياسي وفشل حياتها الخاصة. تخيلت نفسها تتنقل من بنسيون إلى آخر في القطاع الأميركي مع ابنتها لوتي، الوجبات التي تتناولها وحيدة، مع كل الأزواج الذين يحيطون بها، مثل سعادة منيعة. تخيلت السهرات الكئيبة حول المائدة، والكلمات القليلة المتبادلة بين ابنة صغيرة وحيدة وامرأة تذبل بعيداً عن المسارح والرجال وهانز ترو. لن يكون بوسعها حتى أن تلتقي مجدداً بأصدقاء الطفولة لأن فيينا أصبحت تخضع للسلطة السوفياتية.

كانت تقلب كل هذه الأمور في رأسها حيت سمعت مجموعة صغيرة تثرثر بصوت خفيض، على مقربة من النافذة المشرعة، ضحكات، وقرع كؤوس. نأت ماريا وابتعدت عن دائرة الشمس التي كانت تدفىء الأرضية. لم تتخيل أبداً أنها ستتشرَّد مع طفلتها. في يوم من الأيام، سوف يكون مصير هانز ترو في حفرة، بعد أن يكون زملاؤه في موسكو قاموا بتصفيته... أجل، الوحدة تحاصرها، الدوائر تمتد ما وراء مكلمبورغ، ما وراء ألمانيا الغربية، وتبلغ ضفاف البلطيق.

ذات يوم، وسط مشهد بحر مسطح، رمادي، رتيب وبارد، سوف يبدأ شيء آخر. ماذا؟ حياة أخرى؟

في هذه اللحظة، سمعت ماريا صوت برشت في الرواق:

ـ ماريا!!! ماريا!!! إنضمي إلينا!...

أغلقت ماريا الدرج. التصقت بالحائط.

دخل برشت، كان مضرج الوجه ومتعرق الجبين، يشرب جعة كورونا، مبتسماً.

ـ تأتين دائماً إلى غرفتي حين لا أكون فيها ؛ وحين أكون فيها، تغادرينها...

لم تحاول ماريا الإبتسام. تابع برشت الكلام:

ـ تمضين للتنزه تحت المطر، وتحبسين نفسك في غرفتك حين تشرق الشمس. أشتهيك فتعيدين تزرير قميصك وتضمين فخذيك. أحتسي الشمبانيا، صباحاً، مع ضيوفي، فتأتين لتشتمي ملاءاتي وتتحققي من إخفائي فيها بعض الأفكار التعيسة، أو من إخفائي تحت المرتبة لجواز سويسري، ومن تخطيطي لاغتيال الرفيق أولبريشت. لا أدري إن كنت ستعثرين في نهاية المطاف على ضالتك المنشودة يا ماريا ولكنك مزعجة. أتساءل ما الذي سوف أفعله بحضرتك.

ثم رفع الكلفة:

ـ بك...

تنحنح وأخفض صوته:

ـ بقيت حصة من فطيرة التوت التي أعدتها هيلي. هل ترغبين بها؟

مرت عبر النافذة فراشتان تحومان وتتعانقان، أصوات الحديقة، تغريد العصافير، طراوة الهواء، عبور الظلال.

تناول برشت من جيب قميصه قلم رصاص، عثر على مفكرته في جيب سترته القطنية المعلقة على الباب. كتب شيئاً. ظلت ماريا فاغرة الفم تنظر إلى فراش برشت وتتساءل عن سبب عدم تحملها الانسلال بين برشت والحائط. كانت بحاجة إلى الهواء، إلى الهواء باستمرار. رغبت بنزهة طويلة سيراً على الأقدام في سكينة الغابة، في غابة مقدسة، تصادف فيها، على مفترق درب، السيارة السوداء وهانز ترو الذي ينتظر.

أخفى برشت رصاصة القلم ورمق ماريا:

ـ لنعقد هدنة اليوم.

أمسكها من كتفيها، جذبها نحوه، ثم مصَّ شحمة أذنها.

ـ تعالي!

همس في أذنها:

ـ وكوني مبتسمة، بشوشة، ولطيفة مع ضيوفنا.

11

كان هانز يبصق في الماء. يلوح كالتلميذ الذي يمضي إجازة في برلين. يتأمل الأبواب المغلقة للمسرح القومي. بسبب اشتداد الحر، ينزع سترته ويقترب من ملصقات مسرحية السيد بونتيلا وتابعه ماتي، المعروضة مثل قوائم الطعام في واجهات زجاجية. يتفحص توزيع الأدوار ويلمح بحروف صغيرة إسم ماريا أيش في دورالخادمة فينا. هل يعني ذلك أنها لا تؤدي أدوارالبطولة من الآن فصاعداً؟ ابتعد عن المسرح وقصد أرصفة النهر.

صادف هناك بين صفصافتين كهلاً يعرض للبيع على غطاء عسكري بعض السلع، ساعة رقاص صغيرة، ساعتين رجاليتين من فترة ما قبل الحرب، ثلاثة مجلدات لغوته، أمشاطاً وفراشي شعر. تساءل هانز غريزياً عن هوية ذلك الرجل المتناسق التقاسيم الذي يبدو كأنه لم يعد ينتظر شيئاً.

"ماذا يعني، رجل؟ ألم تقل من قبل إنك سائق؟ ضبطتك تناقض نفسك بنفسك...". في مسرحية بونتيلا، تقول إحدى الشخصيات هذا الكلام ولعل بونتيلا نفسه هو قائلها. فكر هانز: هل كان صيدلانياً؟ كبير خدم؟ بائع حطب؟ رمق ذلك الرجل الجالس بين صفصافتين، ولاحظ أن الفقر والحرب قد جعلاه شبيهاً بشجرة الصفصاف. تبددت المرارة، وكذلك تبدد الرجاء، وجفَّف ملح الفكاهة والأمل كل شيء.

قلَّب هانز ترو مجلدات غوته، شمها ليسترجع رائحة الورق العتيق والسقيفة التي تذكر بفترة ما قبل الحرب. كانت مرحلة يسودها الهدوء، فيها شيء من القرن التاسع عشر بعتمته، وأوانيه الفضية،

وعائلاته العريقة المتزمتة. اشترى المجلدات وأضاف ثلاث قسائم للتموين بالفحم. لم يبتسم الرجل، مندهشاً، واستغرق وقتاً طويلاً لتغليف المجلدات في ورقة قديمة لصر اللحم عند الجزارين مبسوطة بعناية لمحو آثار تجاعيدها...

ثم نزل هانز بضع درجات وجلس. ترك ساقيه تتدليان فوق النهر. كان يسمع قرقرة بمحاذاة ألواح خشبية مكوَّمة في مغارة سوداء. الحزن المقلق والمشمس لبرلين في قلب الصيف...

لمح الهامة الشابة لامرأة شقراء مرت مروراً خاطفاً في الأعلى، وخطرت ماريا بباله مجدداً. في أي مأزق أوقعها؟ كانت تحترم مهمتها بقدر ما تحترم بدون شك دروس التعليم الديني... ولكنه يجهل في الواقع آراءها السياسية. هل لديها آراء سياسية؟ لديها "قلب نقي ومتوقد" فقط، والحق يقال إنها الكائن الوحيد الذي لا يرغب بإصدار الأحكام عليه والتلاعب به. كان يطلب منها على مضض تصوير تلك القصائد المريرة، تلك السلسلة من الخيبات التي يخفيها برشت في دروجه مثل طفل.

فتح هانز مجلدات غوته مفكراً بطريقة لإخراج ماريا أيش من البرلينر أنسامبل. استرعى انتباهه صوت ماء خفيف. الشيء الوحيد النابض بالحياة في هذا الحي الجامد تحت الشمس تلك القرقرة، وذلك التيار الذي يلطم بعض الألواح الخشبية وعيدان القصب المتعفنة. اعترف في قرارة نفسه بأنه يحب ماريا أيش، ولكن هذا الشعور كان أشبه بشعور حيوان سجين في قفص، بهيمة سابقة للطوفان محتجزة في قلعة شاسعة وخاوية. كلما فكر بهذا الحب، لم يدرك سوى عجزه عن تحويله إلى فعل. كان يفضل أن يفشل بدون أن يعرف السبب. يفضل المضاجعات العابرة، المغازلات بين مكتبين، والعاهرات في أحياء أطراف المدينة. كم هي غريبة تلك المحافظة على شعورغرامي مثل كهل يتأمل ساعة رقاص موضوعة تحت كرة من

الزجاج، يخرج مفتاحاً ذهبياً بعناية ليديرها ثانية، ويسمع الساعات تدق وترن وتنبض في آليتها المنمنمة. يسمع قلب ماريا يدق في أعماقه. الغريب في الأمر أنه يريد الحفاظ عليها بدون أن يلمسها، أو يتلف الحب الذي يشعر به نحوها. لا يجب أن يلمسه.

فكر: ما هو العلاج لهذه الحالة؟

الابتعاد عن مركز الزلزال...

هذا ما خلص إليه في قرارة نفسه، وسترته متدلية على كتفه. كان لا يرغب إطلاقاً بتحليل إحجامه العاطفي.لا يرغب باختلاس شيء من ماريا ثم التخلي عنها محرومةً، كما فعل مراراً في أغلب الأحيان. فالنساء اللواتي أحب لا يشغلن في حياته كضابط سوى وظائف دونية. كان لا يجد الاستمرارية والتوازن إلا في عمله والمخاوف الصغيرة التي يثيرها. لا يرغب بالإستيلاء على ماريا وإخضاعها لجشعه. من الآن فصاعداً، تقوم مهمته على إخراجها من ذلك المأزق البرليني، والسماح لها باستعادة حريتها، في مكان آخر، في ألمانيا الأخرى أو في بلد أبعد.

مرَّ ثانية قرب ملصق المسرح القومي فسُرَّ في نهاية المطاف لرؤية إسم ماريا بحروف صغيرة. سوف تعود إلى حياة مغمورة.

12

خرقت ماريا التعليمات. غادرت مكتب برشت وقصدت القرية على الدراجة بحجة شراء الحليب. ذهبت إلى فناء المزرعة التي سبق لها أن زارتها مرة ثم توجهت إلى مركز البريد بعد ملء سطل الحليب. ثبتت مرفقيها على الحافة الخشبية في كشك الهاتف،

وانتظرت مكالمة برلين. خالت أن قلبها سوف ينفجر وهو يعد الثواني. حدد لها شخص يدعى كارميتز موعداً في ثكنة قديمة مهجورة للجيش الألماني قرب بروتزل على مسافة عشرين كيلومتراً من بوكوف. دوَّنت الاتجاه، أوقعت أرضاً قلمها والظرف الأسمر الذي كانت تكتب عليه.

بعد إغلاق السماعة، ظلت خمس دقائق طويلة لا تحرك ساكناً، الوقت الضروري للتحرر من توترها واستعادة هدوئها. يتصبب العرق تحت إبطيها، يخفق قلبها بين ضلوعها، فكرت أنها كالأرنب الذي يقفز في قفصه. نظمت تنفسها ودفعت باب كشك الهاتف الذي احتجز الهواء الفاسد لخوفها.

المضي بهدوء. الشعور بالتوازن في ساقيها. سمعت حشرات تطن في أذنها اليسرى، وتساءلت إن لم تصب بسرطان في الدماغ.

أخيراً، إذ شعرت أن قلبها لن ينفجر في مركز البريد، اغتصبت ابتسامة موجهة إلى الموظفة الشابة وقالت لها إن بوكوف أجمل قرية زارتها. بوغتت ماريا بتعبير الشك الذي ارتسم على وجه الموظفة. تساءلت إن لم توقظ ريبتها إذ تظاهرت بمثل هذه البهجة العارمة في مثل ذلك المكتب الكئيب.

سنديانات جميلة، طريق سيئة التزفيت، بيوت صغيرة مطلية باللون الأبيض، عصافير تحلق نحو سماء زرقاء. هضاب واضحة المعالم على مد النظر.

تبعت الخارطة المرسومة في عجالة على ظهر الظرف ووجدت نفسها أمام عدد من الأبنية المحاطة بالأسلاك الشائكة. باحة واسعة ومنتفخة قليلاً تتخللها التشققات. أهراء، ولجهة اليسار، ملجأ من الباطون يتوارى نصف كواته وراء الأعشاب المرتفعة. كانت الثكنة القديمة مربعة، مهجورة، غريبة وسط الريف. أفق الحقول الأخضر،

فضاء السماء الشاسع، الغيوم، وبعض العصافير التي تنقب في أشجار الفاكهة.

نزلت ماريا سلماً ودخلت إلى قاعة شبه معتمة فيها الكثير من الأعمدة الحديدة. صفوف طويلة من الطاولات والمقاعد المتكومة. كان هانز ترو ينتظر تحت الساعة الضخمة في المقصف. يتسلل الضوء عبر النافذة ويضيء بزته الرمادية وقميصه الأبيض المفتوح الياقة، المكوي بعناية شديدة. يستدير لينظر إلى ماريا تقترب. يرفع رأسه محرجاً حين أصبحت قريبة منه.

قالت، فكرت ورددت في قرارة نفسها: ـ صباح الخير يا هانز.

أجاب هانز: ـ وقتي ضيق.

فكرت ماريا: إمنحني إياه لوحدي، أتوسل إليك. ظلت واقفة أمامه مرتبكةً تعلو وجهها ابتسامة شبه مهيبة. يلوح كشاب عادي إنما هل من شاب عادي نقي القلب... في هذا البلد الضائع...

ـ كيف أحوالك؟

لم تعد تفهم ما تسمعه. يستدير هانز، ويبتسم لها ابتسامة خفيفة ورقيقة. يبادرها وهو يخشخش غرضاً معدنياً في جيبه.

ـ لماذا لم ترحلي إلى الغرب؟

يجلس إلى إحدى الطاولات.

ـ لو طلبت مني أن أرحل...

ـ لأجبتك أن بوسعك الرحيل.

ارتجفت، ابتعدت قليلاً ولَمَحَتْ الخربشات الإباحية على الجدار، وقد اهترأت بسبب الرطوبة. شعرت بأنها غير مسكونة. شبح. ضمت ذراعيها على قميصها. لاحظ هانز أنها ترتعش. اقترب منها ووضع يده على كتفها.

ـ كيف الحال؟

ـ لست على ما يرام.

أضافت:

ـ غالباً ما يحدث لي ذلك.

حدق هانز إلى وجهها وارتعشت العضلات حول عيني ماريا ارتعاشاً خفيفاً. لم يعرف هانز ماذا يقول لها ؛ سحب برفق حمالة جزدان ماريا، وفتح القفل النحاسي الصغير فتحةً أحدثت صوتاً مقتضباً. فكرت ماريا: أعطوني جزيرة لأحب هذا الرجل، أي جزيرة كانت ؛ لوحدي فقط، هذا الرجل، ولو أسبوعاً في حياتي...

كانت صفوف الطاولات توحي بمحيط من الحزن. تتدلى ذراعا ماريا الجميلتان على طول جسدها. تأمل هانز الصور والوصفات الطبية، والظروف التي تعلوها ملاحظات صغيرة، مثل قوائم الحشرات، حررتها ماريا، وفيها خواطر شخصية وجمل التقطتها حين يبدأ برشت، بعد تناول ثلاثة كؤوس من الشنابس، يثرثر وسط الشموع في المساء.

ـ ماذا فعل بك؟

ـ لا شيء محدد.

ـ ما زال يخطط للسفر إلى الصين؟

ـ دائماً.

فكرت: يا إلهي، فليأخذني، فليستبْقِني، ليته لا يرحل أبداً... أبداً... يا إلّهي، إجعله...

ـ وقتي ضيق يا ماريا ولكن عليك أن ترحلي إلى الغرب.

أجل، يا هانز، لا بأس، يا هانز، هل تفهم يا هانز أن عليك مرافقتي؟

ـ أنت إنسانة نادرة الوجود يا ماريا أيش إنما عليك الرحيل، فالقيمة المضافة الشيوعية سوف تصبح شيئاً ثانوياً، لا سيما لشخص مثلك. ما عدت بحالة مناسبة.

كادت تقول: "أنا قلب نقي ومتوقد".

بادرها هانز قائلاً:

ـ لا يجب بعد اليوم أن تعتمدي على هؤلاء الأشخاص.

بحث عن صيغ لطيفة، مهذبة، صادقة ليبدد ذلك اليأس في تلك النظرة القريبة منه للغاية.

ـ لقد نجحت في كل ما كان بوسعك أن تنجحي به يا ماريا.

أمسك معصمها، كان جزدانها مفتوحاً بينهما على الطاولة، أرادت أن تلتصق به مما أفقدها توازنها. ألصقت وجهها بسترته ولم تحرك ساكناً. العشب الحار والناعم لأشجار الصنوبر والأعشاب في جزيرتنا، نحن الإثنين، أسبوعاً، أطلب أسبوعاً فقط.

تحرر هانز برقة ولمَّ صوراً فوتوغرافية تبعثرت على الأرض.

ـ عليك أن ترحلي... لدى عودتك إلى برلين في أيلول/ سبتمبر، سوف تحصلين على الأوراق الضرورية لانتقالك إلى الغرب، سوف أهتم بالأمر شخصياً...

كانت كالصنم، وقد اتسعت عيناها اتساعاً هائلاً، وارتعشت شفتها السفلى. لمَّ الأوراق، ناولها جزدانها، وحرص في حركاته على كل ما تسنى له من التهذيب والرقة ولكن ماريا كانت كالنائمة، كأنها في حلم.

قالت بنبرة جوفاء: ـ أشكرك.

ـ لا تشكريني يا ماريا.

خرجا إلى الباحة. كانت شمس حارقة تعشي بصرهما.

قال لها: ـ لا تحزني ولكننا لن نلتقي بعد اليوم.

سارا بمحاذاة ما يشبه حوض السباحة المدعم بفواصل من القطران. كانت سيارة سوفياتية سوداء تنتظر، من تلك السيارات الرسمية الضخمة التي تجتاز برلين دائماً.

فتح هانز باب السيارة ونظر إلى ماريا.

ـ أين تذهبين؟

ـ أجلب دراجتي.

إنه يتلاعب بآخر قطرات دمي وحياتي...أضحى التنفس شاقاً. فكرت ماريا وقد اغرورقت عيناها بالدموع: سوف أموت.

استدارت الواجهة الزجاجية الأمامية للسيارة في بريق من الضوء ثم انطلقت السيارة خلف الأسيجة. اختفت الجزيرة والحدائق الفيحاء. لم يبق سوى جدار قديم ونوافذ بقضبان. أحست ماريا بأنها محاصرة وسط مشهد طبيعي هائل. خضرة بدون انعكاسات. راحت تقود الدراجة وهي تبكي بهدوء وتتأمل، غير مصدقة، السماء الشاسعة.

أعطوني أسبوعاً على جزيرة معه، يوماً واحداً...

13

إنه فيلم سينمائي صغير متراقص، مائل إلى البياض، مخطط، فيه هالات سمراء غريبة تنزلق على طرف الشريط. يميز فيه المشاهد زورقاً وسط الإنعكاس الصباحي للبحيرة. التماعات سوداء في الزاوية اليسرى من الصورة. ماريا أيش تضع نظارات سوداء كبيرة، وتلبس كنزة رمادية بدون ياقة، وسروالاً فضفاضاً يرفرف أحياناً بسبب الهواء. يحيط بوجهها منديل.

يجذف برشت ببطء وقد شمَّر عن ساعديه. ينزلق الزورق بدفعات خفيفة على البحيرة. في المشهد الخلفي، تظهر أشجار سندر مصطفة بترتيب. اعتمر برشت قبعته ثانية. يجذف بحركة متعبة ومعلقة فيما تقرأ ماريا أيش أوراقاً تلوح كمناديل الورق. ليس من الواضح سبب انحنائها في ظل الزورق من الجهة الأخرى من الكاميرا، ولكن المرء يسمع تعليقاً لتيو بيلا، مائعاً بعض الشيء بسبب التشويش: "بعد

مرحلة الغزل، أدركت أن الخنزير في جحره لا يرغب سوى بالتدحرج والاضطجاع عليها".

في العمق الرتيب للظلال الفضية، ذراع ماريا يضع الأوراق جانباً، ليس في الزورق بل على صفحة الماء. يسأل أحدهم: "ماذا تفعل؟"، ويتمتم هانز ترو وسط الفرقعة الآلية للمسلاط: "تنتقم ماريا من برشت مبعثرة ملاحظاته المعدة للخطاب الذي سوف يلقيه أمام قسم فنون المسرح وقوائم المهام الجديدة للمسرح التي باضها السيد والمعلم... ـ لديكم هذه الملاحظات؟...ـ أجل. صورتها عميلتنا مباشرة عن الآلة الكاتبة للمعلم. ـ حسناً. قاطع صوت مبحوح في العتمة؛ فيما تراءى برشت يترك المجذافين، يقفز فتطير قبعته (تبقى بلا حراك على الماء) ويمسك بذراعي ماريا أيش التي تحاول إخفاء الأوراق خلف ظهرها. تتبعثر بعض الأوراق تحت نور الشمس، تبتعد عن الزورق، تلتقفها انعكاسات القصب. سمع أحدهم يتمتم في آخر الصالة: "سوف تتركون التقرير على مكتبي. ثم نرسله إلى موسكو...".

ينزلق الزورق. تبعد ماريا التي نزعت نظاراتها شعرها عن وجهها. يبسط برشت ورقة مبللة في قعر الزورق، وقد ركع على قوائمه الأربع. أجل، ما زال برشت يحاول جمع الأوراق التي تطفو كأزهار النينوفار. تسبح ماريا وتلهو. تخيم الأشعة الرقيقة لظلال شجر تنوب. يستعيد بيشت المجذافين بينما تختفي امرأة شابة في الظلال. يغذي برشت الواقف حيرة الناظر إليه للحظة خاوية. يرتعش المشهد. يطفو رأس ماريا في العتمة المتلألئة وأوراق الأشجار عند المرسى. يختفي رأس ماريا الضاحكة مرة أخرى في خطوط صورة مشبعة بالشمس. يتوقف الفيلم...

لاحقاً، حين أعيد تشغيل الفيلم، كان يلوح كفيلم آخر. اختفت

الأوراق، لم يحصل شيء، عادت البحيرة مرآة وسط الشمس، فارغة، وفي الزاوية العليا اليسرى من الشاشة، كانت امرأة تسبح. ثم، في تقطيع مشهد آخر، تراءت رموشها السوداء التي ما زالت مبللة ومتشابكة. علق هانز:

ـ صوّر هذا المشهد لاحقاً خلال النهار.

أعيدت إضاءة الصالة التي كانت تغص بالبزات.

كان فلهلم براشكو من المجموعة الرابعة في جهاز الاستخبارات الألمانية الشرقية يصغي إلى تقرير هانز ترو:

ـ أدت ماريا أيش أدواراً في مسرحيات كوميدية مسلية في فيينا وهي ليست مستعدة للضغوطات التي نعيشها. ولكنها رفعت إلينا بانتظام تقارير موثوقة جداً. إنها تمقت المسرح البرشتي الذي يؤمن بعهد علمي يجري تطبيقه على الأدب.

أضاف هانز ترو:

ـ لطالما آمنت أن المسرح مجرد سلسلة من الحيل المغنطيسية، فن ساحر أو فقير هندي... ومن هذه الناحية، إنها مجرد ممثلة نمساوية ظريفة من نهاية العصر الأمبراطوري تتوقع مشاهد غرامية، ومآثر عظيمة، والتنهدات المضطرمة لأمراء وسيمين.

وأعقب ذلك نقاش حول الإجراءات اللئيمة والشاقة التي تتعلق بالرواتب التقاعدية المدفوعة للمحاربين في إسبانيا. نهضت البزات وغادرت القاعة مثرثرة.

قاطع فلهلم براشكو هانز وسأله: ـ أين هي؟

أجاب هانز ترو: ـ في شقتها بشومانشتراسي.

ـ اهتم بها.

14

خرج برشت قبل انبلاج الفجرعشية عودته الخريفية إلى برلين. كانت البحيرة رمادية ومدلهمة. الضباب ينقشع، وتتجلى للعيان أشجار الصنوبر. سقى برشت أجمات الورد. وضع المرشة جانباً، وكان يرتدي معطفه المطري القديم المجعد وينتعل صندله البحري المهترئ.

ظهرت هيلين، ونزلت سلم البيت الكبير. كانت تحمل غسيلاً.

ـ استيقظت باكراً!

ـ أجد صعوبة في النوم...

ـ وأنا أيضاً.

ـ أتساءل كيف أقول بعض الأمور لماريا...

أحضرت فنجانين والقهوة.

ـ إذا كنت لا تعرف كيف تقولها، لا تقلها.

شربت القهوة.

ـ إنها تفتقر إلى التأهيل الحقيقي.

ـ تملك الجاذبية.

تنهدت هيلين: وماذا يعني ذلك؟ من لا يملكها أصلاً؟

ـ لديها جمال... داخلي...

رنَّت أساورها الصغيرة وهي تضيف قطعة سكر إلى قهوتها.

ـ لم ألمحه.

سارا حتى الجناح الصغير وقد تأبط أحدهما ذراع الآخر.

ـ أدركت في نهاية المطاف أنها ليست على المستوى.

ـ وأخيراً.

ـ إنها تملك شيئاً ما يميزها.

ران الصمت. جلس برشت على درجات السلم وأرخى قبعته على أنفه.

ـ لا يمكنني التخلي عنها باستخفاف.

ـ إحتفظ بها إذن! سوف تحك لها رأسها. وأصلاً، سوف تحك لها رأسها بالضبط كما كنت تفعل مع الكلب الهجين ريكلز في سانتا مونيكا.

ـ إنها تصلح لبرودواي. شيء براق يصلح لمسرح برجوازي صغير.

في التاسعة والدقيقة الخامسة، خرجت ماريا بقميص أبيض منقط بالأزرق وسروال عسكري قصير رائع يبرز مفاتنها. زينت شعرها بزهرة الربيع.

جلست إلى طاولة الحديقة. كان برشت يطالع أسعار البن والقصدير في صحيفة أميركية. يزمجر زمجرة هادئة. يعلم أن البلدان المنتجة للبن لا تملك سوى أربعة أو خمسة مستوردين عالميين يشترون منتجاتها بأسعار بخسة. وعلى الرغم من ذلك، كانت قهوته الصباحية مقرفة.

روى لها قصة غريبة عن زوجين ليشرح لها مفهوم "المباعدة". كانت المرأة تهدد قوة عمل زوجها بسبب أنانيتها. فقرر الزوج التحرر من نفوذها. ولكن الحنكة الزوجية تقتضي اتخاذ هذا القرار بخفة. البقاء منتعشاً، متوافراً، مهتماً، لطيفاً. كلما كان القرار بالتحرر من الزوجة بدهياً ومحتوماً، اضطر الرجل لمراعاة مصلحة الزوجة الشابة، إنما عليه القيام بذلك على نحو موضوعي، وبالتالي مجرَّد، كما هو الحال مع الأشخاص غير المقربين بشكل خاص. وفرض الزوج على نفسه تبرير نزواتها والموافقة عليها عوضاً عن الغضب بسببها. أضاف برشت:

ـ أصعب الأمورالتخلي عن أحدهم بدون الإنتقاص من قيمته.

ـ هل تعنيني بهذا الكلام؟

خلال الصبيحة، تصفح برشت مجلد أشعار لشكسبير.

ثم وافى ماريا التي كانت تتأمل، متجهمةً، البحيرة التي تلمع بعيداً.

ـ هل أنت على ما يرام؟

ـ لا، ليس كثيراً.

لم يلح عليها بالسؤال.

عند الظهيرة، تحدث الجميع عن العروض المسرحية البرلينية التي لم تلاق أصداء إيجابية في الصحافة. خيم الصمت. كانت بعض النحلات تطن حول طبق الفاكهية .

بعد الظهر، حزمت ماريا حقيبتها وعادت إلى برلين في سيارة إرنست بوش.

15

كانت نهاية الأسبوع غائمة. برلين تعوم في حساء أصفر. كل ما فيها أضحى هيكلاً عظمياً، أغصاناً، كتلاً، بخاراً، دخاناً، تشبعاً رطباً، خفقان أجنحة، خطوطاً ناشزة، هالات، كتلاً هائلة مرتجفة ومتفشية تلامس المرء. على مدى يومين، سمعت ماريا برشت يتكلم، خلال فترة بعد الظهر، على كارل فالنتين، ذلك الممثل الهزلي الناحل الذي علَّم الشاب القادم من أوغزبورغ الكثير عن الفن الإيمائي، ثم أعقب ذلك تمارين مطوَّلة حول مشاجرة بين بائعات سمك. واستنتج برشت من كل ذلك ما يلي: نذرف الدموع على

مهرجينا، نقهقه ضاحكين أمام ممثلينا التراجيديين، الشعور البرجوازي الصغير مقياس كل شيء، باختصار، لم يتغير شيء، وكل شيء ممكن للأسف...

ثم استعادت السماء زرقتها يوم الأربعاء. قطع خط الهاتف، وانتاب ماريا الشعور بأن شقتها تعرضت للتفتيش؛ عثرت على عدد قديم من صحيفة ألمانيا الجديدة يتحدث عن محاكمات في إلغاء النازية، والغريب في الأمر أن إسم زوجها ووالدها كان مذكوراً في الصفحة الرابعة المطوية بعناية. من تسلل إلى مقصورتها ليضع فيها الصحيفة؟

خرجت لترسل برقية إلى ابنتها بمناسبة عيد مولدها السادس. كانت الأزقة رطبة. متجر صغير مغطى بلافتات إيزوريل خشبية بدلاً من واجهات زجاجية حقيقية يبدو مهجوراً. كان هر سمين أبيض وأغبر مستلقياً على مجلدات قديمة لمسرحيات شكسبير الكوميدية. رفع الهر الأبيض رأسه وتابعت نظرته الورق الذي يتطاير في الزقاق. دخلت ماريا المتجر لتشتري المجلدات ولكنها كانت باهظة الثمن، كانت لترغب بإهدائها لا إلى برشت بل إلى هانز ترو، الأمر الذي كان لا معنى له. ظل مشهد الهر الذي يراقب الورق يتطاير مطبوعاً في ذهنها بضعة أيام كدليل على خفتها. سمعت أناشيد وطنية وهي تمر بمحاذاة ثانوية، ألمانيا وطن موحد، فلتشرق الشمس، وهلم جرا، ثم اجتازت جداراً من الباطون كانت بعض البزات العسكرية السوفياتية تتصور وراءه.

في المساء، ارتدت ثوباً طويلاً بنفسجي الزرقة يغطيه البريق، خضبت شفتيها وطلت أظافرها، وانتعلت كعابها، وأخرجت عقدها اللؤلؤ من علبته المخملية وذهبت إلى حفل كبير في مطعم بيك بمناسبة تقليد وسام إلى هانز أيزلر الملحن الرسمي للنظام.

لما ارتقت ماريا درجات المدخل ورأت كل أولئك

البيروقراطيين، شعرت بالارتباك؛ قدمت لها كأس من الشمبانيا. تناولتها وسارت بمحاذاة الواجهة الزجاجية، اكتشفت أرضاً عسكرية. أبنية مطلية بالأصفر الكامد منارة بأعمدة كهربائية عالية يبدو أن مخروطاً من الرذاذ يتطاير منها.

يقال إن الأجهزة الجديدة لأمن الدولة استقرت في هذا المكان، وكذلك أجهزة تأهيل المعلمين لمدارس الشرطة الشعبية. شعرت بنفسها مدفونة في سنة أخرى من الحرب، يبتلعها شتاء لا ينتهي، عالم من البزات العسكرية، عالم من الجادات المغطاة بالحصى الشبيهة بالرماد، عالم لم يعد فيه كل ما يؤلف الحياة المدنية، والأوامر، والأنخاب المرفوعة باسم السلام وصداقة الشعوب الشقيقة، وأختام أجهزة الأمن، والتواقيع، والملاحظات الخاصة، ممراً إلزامياً مؤقتاً بل القانون المحتوم لعالم من الخوف والهجرة المتواصلة كل شيء فيه يشبه مقصفاً لشعوب جائعة. خطر لها أننا نتخبط، أينما كان، في الوحل والأنقاض والوشاية. شاهدت بلداً أسود من الميكا والبلورات المجمدة، عالماً مشيداً من الألواح الخشبية وأكياس الإسمنت، حبيساً وسط النباح، والقضبان، والأبنية المهجورة في خضم زمن لا يكف عن الدوران في دوامة ولن يستفيق أحد منه.

كان هذا العالم يقرقر تحت المطر المتواصل وفقر الشعارات المتواصل. عالم من الدمى المتحركة والرجال الآليين، والمحاكمات المتواصلة، والتقارير، واللجان، والتواقيع الإجبارية، ومجالس الشعب، والعمل التربوي الخاضع للتقييم، والإرشادات، وقوانين الشرطة الجنائية، والإنتظارات المفضوحة، والانفعالات القانونية، والاستعراضات العسكرية، والتجمعات الشبابية، والرفوش، والمعاول، وحجارة الرص، والأشغال الشاقة، والتدقيقات والمبادىء المؤكدة باستمرار، والقمصان والمشدات الزرقاء، والأطفال

المصطفين، ما عادت ماريا تطيق هذا الوضع. كانت تريد جزيرة، البحر باخضراره العميق، تريد كل مياه موجة عارمة لتغطيهما، تكنيسات الاعتدال الكبرى، وتأرجحات المحيط الكبرى من أجل النسيان.

كان العسكريون ببزاتهم يؤلفون مثل ظل حولها، همهمة مبهمة. تدور الأحاديث حول الثقافة الموسيقية، والمادة السادسة، وتحريض الغرب على المقاطعة.

التجنيد، الحسم، الانتصار. مظاهرات جماهيرية متواصلة، خطابات على المنابر، إطلاق الحمائم، شعارات تصرخ بحماس، تصريحات عصماء في الصحف، مناشير، لغة خشبية، القضاء على الطبقات البرجوازية، صفوف من البزات الرمادية، تحديد عناصر لااجتماعية لا بد من تصفيتها، طوابير من المراهقين الذين يتعتعون قصائد متفائلة، صور مؤطرة تحت الزجاج لستالين أو لفلهلم بيك. ذلك هو العالم الذي تعيش فيه.

أولئك النسوة بتنانيرهن الطويلة يتظاهرن وسط غابة من اللافتات، بقمصانهن الرزينة، يرددن شعارات متفائلة. كانت ماريا تنأى عن كل الذين يتكلمون في الحفلات الرسمية بصوت منخفض على أولئك الذين عقدوا تسويات مشبوهة مع البرجوازية الصغيرة في الغرب، كل أعضاء الحزب الذين يجتازون الفناء الممتلىء بالأوراق الذابلة ويشيرون إلى السطوح التي تلمع بسبب المطر في الغرب وكأن عناكب عملاقة تتنزه فيها. ما عادت ترد على أولئك الذين يخضعون أنفسهم لتبعية فكر أوحد يشوه كل الأحكام. تخرس أمام أعضاء الحزب المكتنزين، بأكمامهم المشمَّرة، وحمَّالات قمصانهم العريضة، الذين يتأرجحون على أرائك نادي النورس ويرددون أغاني ماضيهم الشيوعي. تتحاشى الذين يؤيدون علناً معسكراً سياسياً لم يكن معسكرهم طوال خمسة عشر عاماً. كل ذلك يشوشها وينهشها. تطرح

على نفسها الكثير من الأسئلة، تشعر بالوحدة، مستضعفة أمام فايغل وبرشت، هو الذي ما عاد يلجأ إلى موهبته التهكمية إلا لإبعاد أولئك الذين يرغبون بسؤاله عن سبب تضحيته بموهبته في سبيل فضيلة رسمية زائفة. كل هؤلاء الأشخاص الذين يريدون التحلي بموقف نموذجي ويضحون برهافتهم وفنهم ورقتهم أمام المصالح السياسية الآنية التي لا ترحم. ما عادت تطيق كل ذلك.

برلين الغربية

1952

في الفجر
تكون أشجار الصنوبر نحاسية.
هكذا كنت أراها
منذ نصف قرن
وحربين عالميتين
بعينين يافعتين.

برتولد برشت

1

كان مكتب النقيب آلان كرويد يقع في زاوية الطابق الثاني لإحدى الفيللات المطلة على شارع ريشترشتراسي. يتمتع المرء من خلال الواجهة الزجاجية بمنظر رائع لميدان سبق خيول قديم. أصبح هذا الميدان منطقة تدريب للمارينز ومركز تموين بصفائح البنزين. في ملعب هيبل القديم، أنشأ المقر العام للقوات الحليفة مركزاً للتموين يضم معسكرات سطوحها مزفتة، مليئة بسلع أساسية لسكان برلين تحسباً لحصار طويل الأمد.

كانت الفيلا المجاورة بإسمنتها الأسمر وشرفاتها الشرقية الطراز تحتوي على كل الخردوات الإلكترو- بصرية لوكالة الاستخبارات الأميركية.

تشغل المقر القديم لأمراء هاردنبرغ أجهزة محفوظات الجنرال ستانلي باي. يضم كل الأدبيات الاستخباراتية التي يحتفظ بها ضباط شبه متقاعدين لا يطالعون سوى الصفحات الرياضية في صحيفة نيويورك تايمز ودعاية القياديين في بانكو. كانت المبارق تصدر فرقعةً وسط ضوء مائل للزرقة وتحمل أخباراً من المقر الرئيسي في واشنطن. يأتي بانتظام رجل يرتدي رداء أبيض ليقتلع أشرطة الورق التي لا تتوقف عن الالتفاف على مشمع الأرضية. في الحجرة الرمادية الجدران، من الجهة المقابلة للرواق، أشرطة تسجيل سمراء تدور ببطء، والجزء العلوي من هذه القاعة الصغيرة مكتظ بدروج معدنية صنفت فيها كل أفلام النيجاتيف للغارات الجوية التي حولت ألمانيا،

من هامبورغ إلى دريزدن، إلى سلسلة من الأشرطة الساحلية التي يحلق فوقها الإوز البري.

كان آلان كرويد يتفحص بعناية ملف ماريا أيش وسط الوثائق الرسمية على ضوء مصباح حديدي أزرق ينير قسائم دخول إلى نادي كرة المضرب في المقر العام للقوات الحليفة. كان المخروط الضوئي الذي ينبعث من مصباح المكتب يقع على مذكرة ملحقة مصدرها أجهزة الاستخبارات البريطانية في فيينا المستقرة في كولماركت.

كان النقيب آلان كرويد مستغرقاً في تأمل عميق بحيث يبدو وكأنه شبه نائم. ترتعش قليلاً في يده اليسرى المذكرة الزرقاء بثنياتها وآثار الكربون عليها. رفع هذا الرجل الصارم ذو الوجه الشائب نظره صوب ماريا. كانت رائحة سيجار خفيفة تنبعث من علبة حديدية تصور بحاراً عجوزاً محاطاً بالحيتان، علبة من المعدن الكامد محكوكة على الأرجح بواسطة مطواة. وثمة كذلك الدليل الإنجليزي ـ الألماني لتعليم المحادثة الصادر في زوريخ عام 1933، وبطاقة دبلوماسية حمراء.

استأنف كرويد الحديث بنبرة ودودة ومتعبة كأن الأمر يتعلق بإجراء روتيني قبل الانتقال إلى موضوع آخر.

ـ عما كنت تتحدثين مع برشت؟

ـ لا شيء جدي.

ـ هل تعنين: لا شيء سياسي؟

ـ لا، لا شيء.

ـ ولكنه كان يجري أحاديث جدية في حضورك؟ أحاديث سياسية؟

ـ أجل، مع هيلين فايغل وبعض المعاونين والمخرجين.

ـ ولكن ليس معك؟

ـ لا، معي كانت يتحدث...عن أمور تافهة...

ـ من أي نوع؟

ـ أزيائي، سيقاني.

ـ كنت صديقته... صديقته الحميمة... أليس كذلك؟

ـ لا أدري... لطالما تخيلت ذلك... إنما ليس في الأشهر الأخيرة...

ـ ماذا كان يقول عنا نحن الأميركيين؟

ـ احتفظ بذكريات سيئة عن هوليوود... كان يقول... أذكر أنه كان يقول في أغلب الأحيان إن الأميركيين والإنكليز لا يعرفون" أرضنة" التجربة الفنية، وأنهم يقحمون الكتاب المقدس دائماً في كل مكان... وأن المسرح الجديد لا بد أن "يتخلى عن ميتافيزيقيته".

ـ هل كنت تعلمين أن لجنة الأنشطة المعادية للولايات المتحدة قد استجوبته؟

ـ أجل.

ـ هل انتسب إلى الحزب الشيوعي؟

ـ لا أظن...

ـ هل حدثك عن جو فورستر؟

ـ لا.

دوَّن كرويد بعض الملاحظات على مفكِّرة زرقاء تحمل شعار النسر الأميركي. ثم وضع قلم الرصاص وابتسم لماريا. راح يفتح الدروج.

ـ هل حدثك عن شرائه المحتمل لبيت في سويسرا؟

ـ أبداً.

ـ كان يملك المال؟

ـ قليلاً.

ـ ألست متأكدة؟

ـ لا...

- هل اقترح عليك الانفصال عن البرلينر أنسامبل؟
- لا.
- هل اقترح عليك الانتقال إلى برلين الغربية، وتحديداً إلى القطاع الأميركي؟
- لا.
- من اقترح عليك ذلك؟
- لا أحد.
- وما هي مشاريعك؟
- تدريس الألمانية في معهد كاثوليكي قرب غوته بارك.
- هل كان أعضاء اللجنة الثقافية قلقين بشأن البرامج "الثقافية" (تعثر في لفظ كلمة "ثقافية") لبرتولد برشت؟
- كان يتمتع بوضع خاص...
- الجميع يراقب الجميع...
- ممكن...لا أدري...

أحضرت موظفة ترتدي بزة عسكرية صينية عليها إبريق شاي من المعدن الأصفر المهترىء، وبعض قطع السكر الموضوعة على طبق صغير، وكوبان لونهما أبيض مائل إلى الصفرة.

- هل ذهب إلى موسكو؟
- لا. لا أظن.

كانت أسئلة النقيب كرويد توحي بأنه يشجع على عدم البوح بتفاصيل هامة، وكأن أقل حركة لبرشت، في كل الأحوال، وشؤون البرلينز أنسامبل معروفة منذ وقت طويل بحيث تكفي بعض التفاصيل لاستكمال الاستمارة وإضفاء دقة ظاهرية عليها إن لم نقل معلومات مثيرة.

- أين تقطنين؟
- في بنسيون صغير مفروش، قرب كنيسة سانت توماس. بنسيون أدلر.

أعقب ذلك حديث مطوَّل وممل حول زوج ماريا ووالدها، اختفائهما، تحايل فيه النقيب بعض الشيء حين أعلن أنه يريد إبلاغهما رسالة للتحقق من وجود علاقة بين ماريا وبينهما. وأخيراً، تناول كرويد نظارات راي بان كانت على مكتبه، تأمل زجاجاتها، وقال:

ـ لقد تجسستِ لحساب ذلك العميل... وكذبت وجازفت بحياتك نوعاً ما من أجله، من كان ترو ذاك؟

سكتت ماريا.

ـ ....

ـ هيا، أجيبيني.

ـ إنه شخص جيد. كان يقوم بالعمل الذي تقوم به أنت.

ـ حقاً؟

ـ أجل.

ـ حقاً!

إزاء صمت ماريا، نهض كرويد أو بالأحرى بسط نفسه. عالج مسجِّلة صغيرة ووشائعها الشفافة التي تلوح كأنها تسبب لمعان خيط شفاف. توقفت الوشائع.

ـ لقد احتفظت بآلة التصوير التي كنت تستعملينها ل...

ـ لا.

خطر لكرويد أن هذه الممثلة الصغيرة تتحلى، والحق يقال، بحمية وطنية أكثر أهميةً من مجرد غريزة بقاء. رمق أكثر من مرة ماريا التي كانت ترتدي معطفها الرصاصي المدوَّر الياقة، ولكن الوجه الرقيق ظل خالياً من أي تعبير. لاحظ أن عنقها كان في الواقع الأكثر جاذبية... رافقها إلى الممر، مكفهرالمزاج.

طقس متجهم، صحراء شاسعة، ورش بناء، مخيمات عسكرية،

عمارة وباحات قديمة مبلطة. بعد الظهر، عليه أن يحرر برقيات ويتحقق من استكمال تجمع الراقنين على الآلات الكاتبة التابع للجيش للملفات المطلوبة.

2

في الأشهر التالية، استدعى كرويد ماريا أيش ست مرات. في المرة الثالثة، لمس ذراعها. كان يطرح عليها الأسئلة عموماً مولياً لها ظهره، وينظر إلى شبكة الغيوم التي تمتد في برلين بسعةٍ خاصة بعد تبخر الضبابات الصباحية.

كانت الأضواء تظهر قرابة السادسة مساء؛ تبدو كأنها تتوقف بأعجوبة بمحاذاة غابة صنوبر؛ تلك كانت المنطقة السوفياتية. اللهاث البارد لبرلين أخرى... سوف تحول وكالة الاستخبارات الأميركية يوماً اتجاه تيارات السماء والرياح العلوية وتنشر مطراً مثلجاً معداً لإغراق ورش البناء، المخيمات العسكرية، أولاد الشوارع، الجنود السوفيات الذين يلعبون الشطرنج أمام نوافذ تحولت واجهاتها الزجاجية إلى أنقاض...

خلال الاستجواب الثالث، وضع كرويد مفكرته جانباً وأوقف المسجلة. أضاءت فرجة مشمسة بين الغيوم الفضاء البرليني الشاسع؛ قلبَ الكوة الزجاجية فسمعت ضوضاء الحي البعيدة، ثم أصداء أصوات في باحة مغلقة.

حاولت ماريا أن تشرح له بأن زوجها كان نازياً، وبأن والدها كان صديقاً لرودولف هيسي، يبتهج دائماً أمام مشهد الوحدات المصفحة الألمانية تغزو الصحراء الروسية البيضاء، ويبتهج لمشهد

الآلاف من طائرات ستوكاس تجتاح السماء الأوروبية، مغتبطاً بذلك الصدام الهائل الذي سوف يمنح مجدداً حيزاً حيوياً لشعب آري يتخيل المستقبل بهذا الأسلوب الفائق العظمة.

ـ سمعته يغني وهو يدفع دراجته في ممر الحديقة حين خطب هتلر في هلدنبلاتز.

ـ ولم تتضايقي بسبب ذلك؟

ـ كنت لا أطالع صحيفة حتى النهاية... وأكتفي بأخبار المسرح... والأبراج...

ـ وبرشت؟ لماذا أغرمت به كل هذا الغرام؟

ـ لا، لم أغرم به. كنت أكن له الإعجاب.

ـ فلنبدأ إذن من البداية: من عرفك إليه؟

فحكت له الإحساس بأن جيلها برمته قد سحقه النازيون، وبأن كل شيء تجند في سبيل العقيدة. وأصبح الالتقاء بعباقرة حقيقيين أمراً نادراً.

ـ ماذا تعنين؟

ـ برشت كان عبقرياً حقيقياً.

تحمست. توردت وجنتاها. تحدثت عن أغانيه وقصائده وعن الدهَّان.

ـ أي دهَّان؟

ـ كان برشت يلقب هتلر بالدهَّان منذ عام 1930.

ـ لماذا؟ هل كان دهَّاناً؟

عكست هذه الملاحظة افتقاراً غريباً للذكاء أو، على الأقل، للخبرة، ومعرفة شديدة الضحالة بملف هتلر.

اطمأنت ماريا.

سألته بسخرية: ـ هل تعرف قصائد برشت: أغنية وحدات

الهجوم النازية. أغنية العدو الطبقي؟ هل تعرف مديح الجدلية وأنشودة الموافقة على العالم؟ هل تريد أن أغنيها لك؟

تابعت ماريا إذ شعرت بأنها تحرز تقدماً:

أضافت: ـ هل تعرف أفول عظمة مدينة نيويورك العملاقة؟

أمام دهشة كرويد، راحت تتلو بقوة:

ـ عينات من البشر حشروهم داخل أسوار شاهقة، أطعموهم طعاماً خاصاً، غسلوهم، وجعلوهم يتأرجحون لتخليد حركاتهم الفريدة على الشريط من أجل كل الأجيال القادمة.

سادت لحظة حرج.

قال كرويد: ـ شكراً.

رمى بظرف الشاي في فنجانه. كان يعتبر أنه من المحزن بعض الشيء أن تظل هذه الممثلة الصغيرة التي تتمتع بمثل هذا الجسد الفاتن مولعة بخيميائيها برشت، وفي الوقت عينه، كان مسحوراً بالجاذبية المحمضة لهذه المرأة الشابة. كانت تتوهج حين ترنم. اعتبر كرويد أنها موافقة في العمق على ما يفعلون، تؤيدهم تأييداً مطلقاً.

أخرج ظرف الشاي من فنجانه. أحضرت سكرتيرة طويلة القامة ونحيلة نصف ورقة زرقاء كتب عليها: "اتصلت زوجتك من نيويورك".

ربَّت كرويد ساهماً على شفتيه النحيفتين بدون الإصغاء إلى ما تقوله ماريا.

سألها متنحنحاً: ـ وماذا عن التزاماته السياسية؟

أمام هذا السؤال، تعطَّل ذهن ماريا. نظرت إلى كرويد. كان هو يفكر "بأولئك النساء الصغيرات الرائعات في فيينا، المجعدات الشعر، اللواتي يأكلن فطائر الشترودل مدندنات كوزي فان توتي لموزارت، وينفضن المكانس عبر النافذة".

حاول مساعدتها ولكن إلهامه لم يسعفه. رأى أنه يستطيع استدعاءها مجدداً قدر ما يشاء. ولجأ إلى إحدى صيغه المفضلة:

ـ ليس لدي ما ألومك عليه. أشكرك على تعاونك الصريح.

في ذلك الطابق الثالث الذي يشرف على برلين برمتها، يشعر المرء بالامتصاص العميق للزمن. يجرف الزمن هذه المدينة المؤلفة من الممرات المتعرجة، والأسلاك الشائكة، وتحليق البط البري، والأجراس، والشموس البرّاقة، والميكروفونات، وورش البناء، والفنادق، والواجهات المقعرة، والكتابات المسلوخة. رسائل حجرية. مطابع غبراء. أهراءات.

في السادسة مساء، أحضرت السكرتيرة فنجان ماء ساخن آخر. راح يؤرجح ظرف الشاي فوق الفنجان. بمثل هذا الأسلوب، يمسك بخيط حياة الذين يستجوبهم. لوهلةٍ، غمرته العظمة المرضيَّة للمدينة والسلطة التي تمنحه إياها أصابع الزناد على الذين يأتون للجلوس في مكتبه أمام الصورة الفوتوغرافية المكبرة للقطاع الأميركي.

3

في حزيران/جوان 53، علمت ماريا من الصحف بالانتفاضة في برلين الشرقية. في 17 حزيران/جوان، تظاهر العمال في الشوارع ضد قرار المكتب السياسي للحزب بخفض أجورهم. صعدت إلى سطيحة بنسيون أدلر وشاهدت سحب الدخان تتصاعد من الأحياء الشمالية. علمت أن دبابات سوفياتية تمركزت على كل المفارق الكبرى في برلين الشرقية وأن لافرينتي بيريا، رئيس الشرطة السوفياتية الواسع النفوذ، الذي قدم من موسكو قدوماً طارئاً، أعطى الأمر للقوات

السوفياتية بالاستعداد للتدخل في حين كانت جيوش الاحتلال الفرنسية والبريطانية والأميركية في القطاع الغربي بدورها في حالة تأهب، مستعدة للتدخل. تحدث برشت الذي كان يجري التمارين على مسرحية دون جوان إلى ممثليه عما يجري فيما الدخان يلف الحي بسبب إطلاق الرصاص والحرائق. في ذلك المساء، قرر أن يكتب رسالة دعم إلى حكومة أولبريشت.

ثم، بعد بضعة أيام، عادت الشوارع نظيفة. صمت. الحجارة تحت الشمس. عصافيرالدوري.

نشرت الصحف الغربية الرسالة التي وجهها برشت إلى الرفيق أولبريشت: "أشعر بالحاجة في هذه اللحظة لأعرب لك عن ولائي للحزب الشيوعي الألماني الموحد". وقيل إن حكومة بانكو شطبت بقية الرسالة التي كانت أكثر نقداً. في البنسيون، علق النزلاء على رسالة برشت بدون أن يعلموا أن ماريا كانت عشيقته.

تبذل ماريا جهداً كل صباح، إذ تجتاز بوابة المعهد الذي تدرس فيه، لئلا تصاب بالدوار لأنها تشعر بأن وضعها الذي يقوم على كشف علاقتها ببرشت أمام كرويد يشبه حَياتها، خيانة أزلية، إنما خيانة ماذا؟ من؟ ولماذا؟

أقبل الشتاء. تخيلوا مساءً يأتي سريعاً ويذكر بالقبور. تحليق الغربان. بحيرة رمادية ثم سوداء. معطف يخرج من الخزانة.

في تشرين الثاني/نوفمبر، حضر جندي من الخوذات البيض في الشرطة العسكرية ووقف أمام الزجاج الشفاف في البهو. كان يحمل استدعاء جديداً من المقر العام للقوات الحليفة. تراءى هارولد غراي تحت هالة المصباح الخارجي، جامداً ببعض الشيء. شعرت ماريا، وهي تعود إلى قاعة الطعام، بالتهديد مجدداً. سألها أحد النزلاء:

ـ نبأ سيء؟

أجابت: ـ آه، لا. الروتين المعتاد.

في تلك الليلة، رأت حلماً. شاهدت ثانية ذلك الجندي من الشرطة العسكرية بخوذته البيضاء يقترب من البهو. خيم الصمت. ثم فتحت ماريا الباب، لم يكن جندياً أميركياً بل عنصراً بشوشاً من عناصر وحدات الهجوم النازية، يحمل بيدٍ زجاجة جعة، وباليد الأخرى استدعاء. دخل البنسيون، نظر إلى ماريا التي كانت تبحث بهلع عن معطفها وقفازيها، وقال لها: "لا تجزعي يا جدتي...إنه مجرد استدعاء لتتناولي معنا إوزة! إوزة صباحية- اشتراكية. سوف ترين، ما زال مذاقها لذيذاً!... مذاق ما قبل الحرب!".

استيقظت ماريا في هذه اللحظة. أشرعت الباب الذي يؤدي إلى الشرفة. كانت برلين هنا، هادئة، وفيها بريق مضيء مبهم. قالت في سرها إن برشت يغفو هناك في الجهة الأخرى من المدينة. لقد شهد بدايات هتلر في ميونيخ. سار برشت في الشوارع التي جرت فيها الأحداث. يعلم برشت كم كان الفن المسرحي النازي فعالاً، وكذلك المسرحانية النازية، بانسحاباتها تحت أضواء المشاعل، وعباراتها الطنانة، واستعراضاتها الضخمة، وأناشيدها، وراياتها، وسهراتها الجنائزية. كم كانت مسرحاً للفعالية تلك الاحتفالات النازية! كلمات طنانة، منابر ضخمة، فسيفساءات رجال ذوي وجوه مشعة، أولئك أنفسهم الذين كانوا متبطلين متشردين مساكين... يعلم برشت كم تحمس الشعب الألماني لتلك السينوغرافيا. أجل، كان هتلر سينوغرافياً أعظم منه. كان برتولد مشغولاً بتكوين نفسه، وقد أمضى كل سنوات المنفى يحاول أن يفهم كيف تمكن "الابتزاز العاطفي" الفاشي من النجاح، وانتزاع الإعجاب، وإلهاب مشاعر الجماهير.

كيف تمكن هذا المسرح الخالص من افتتان الجماهير؟ أي ذكاء جدلي، أي مسرح جديد يجب أن يقف بالمرصاد للمسرحانية الفاشية الفاغنيرية؟

فكر برشت بذلك طوال حياته وها هو اليوم يجلس على منصة

رسمية وينظر إلى استعراض الفتيات النموذجيات بتنانيرهن الزرقاء وقمصانهن البيضاء.

كانت ماريا تفكر بذلك، وحيدة في ضوء القمر. وضوح قناديل الحي، كل شيء مستكين، كل شيء يغفو لبضع ساعات. ومع ذلك، ثمة شيء غامض يطن. خطر لماريا: وماذا لو استؤنف كل ذلك غداً؟ هل يكفي برشت وأصدقاؤه، هل تكفي سخريتهم، هل يكفي ذكاؤهم الراقي؟

كان برشت من قال لماريا: "الإنسان يعيش من رأسه ولكن هذا ليس بالشيء الكثير. حاولي فترين أن من رأسك تعيش قملة لا أكثر".

تأملت ماريا فيللات الحي الضخمة في ضوء القمر، شعرت أن خوفها لم يتبدد. فقدت كل تفاؤلها.

4

تفحص كرويد مرة أخرى ملف ماريا أيش وسط الأوراق التي تحيط بآلته الكاتبة .

مرة أخرى، لاحظت ماريا التناقض الهائل بين بزات الشرطة الألمانية المصبوغة بصورة خرقاء والمعادة خياطتها من جهة، والقمصان الأميركية الممتازة الصنع من جهة أخرى. ثمة نظارات شمسية على المكتب المعدني. حفيف أكمام القميص على الأريكة الملبَّسة بالكروم، وأصابع تتصفح ملفاً... يوحي التشابك الدقيق للحبر المتعدد الألوان بمنمنمة من القرون الوسطى بدلاً من وثيقة. ولكن ما أدهشها، وسط هذه الكومة من الأوراق، ظهور الصليب المعقوف المختوم وشبه الممحي.

فجأة، أحنى كرويد وجهه، وقرأ مجدداً بعض السطور وهو يزرُّ عينيه، ثم أخرج من درجه صورة فوتوغرافية صفراء ومسننة الأطراف.

ـ هل تتعرفين إليه؟

كانت صورة لشاب يعتمر قلنسوة عسكرية مستنداً إلى دبابة تايغر، يدخن سيجارة، مبتسماً ومفعماً بحيوية الشباب.

قالت: ـ أجل، إنه زوجي.

ـ ماذا قلت؟

كررت بصوت أعلى: ـ إنه زوجي.

أمسك كرويد الصورة وتفحصها.

ـ كان نازياً أصيلاً بكل معنى الكلمة...

لمحت ماريا نوعاً جديداً من المسجلات يدور. فهمت لماذا يطلب منها أن تكرر كل ما تقوله.

ـ هل تتعرفين إليه؟

أجابت ماريا: ـ أجل، إنه زوجي!

ـ كان زوجك.

ناولها كرويد صورة أخرى.

ـ عثر عليه ميتاً في البرتغال...

ـ ماذا جرى؟

ـ كان يدير معملاً لتعليب السمك المجفف في نازاري.

سألته: ـ أين؟

ـ في البرتغال... في نازاري..

وضع ثلاث صور براقة أمام ماريا. هامة ضخمة التقطها وميض الكاميرا، الباب المفتوح لدورة مياه. طرادة ماء مزودة بخيط بدلاً من سلسلة، شيء ما يشبه رفاً وضعت عليه مواد تنظيف، ولا سيما الجثة المطوية على نحو غريب، حلية بيضاوية الشكل، ووجه نصف ملتحٍ.

شطب قلم كرويد كلمة على ظهر الصورة.

ـ هل تتعرفين عليه؟

أجابت ماريا: ـ أجل، كيف مات؟

سألها: ـ لا نعلم. هل صدمتِ؟

قالت ماريا: ـ أجل.

ـ ارتكب عدداً لا بأس به من الأفعال الحقيرة في المجر وغيرها، هل كنت على علم بذلك؟

كانت وشائع المسجلة تدور في حفيف خفيف.

كانت تعلم أنه وضع قوائم وأعدم "إرهابيين".

تساءلت أين تقع نازاري، وكيف يمكن أن يموت فيها المرء. هل كانت ميناء صيد برتغالي صغير وجميل كما في البطاقات البريدية؟ أم بالعكس، مكاناً كئيباً، ساحلاً مسطحاً وموحلاً تنتشر فيه نباتات الجولق وأهراءات تفوح منها رائحة السمك الكريهة؟

كان كرويد يلوح منتظراً ومحرجاً، كأن لديه ساعة في رأسه وبضع ثوان يمنحها لحيرة ماريا، ثم يلي ذلك كرة المضرب، المسبح، التقارير، الاتصالات الهاتفية...

سألت ماريا: ـ هل سيعاد جثمانه؟

ـ إنه مدفون في نازاري...

ـ آه...

راح المطر ينهمر على الكوة الزجاجية ويغرق المدينة. وضعت ماريا يدها على طرف الطاولة في اللحظة التي نهض فيها كرويد وأطفأ المصباح. انتهت المقابلة. رافقها إلى الممر. كان مشمع الأرضية يجعل النعال المطاطية تصدر صفيراً، كالصدى الذي يحيد عن نفسه. اتكأت على درابزون.

بدأ كرويد يقدم لها تعازيه ولكن حاجباً قاطعه محضراً له واقياً للثياب ومضرباً.

نزلت السلم بدلاً من ركوب المصعد. كانت الدرجات النظيفة

المصنوعة من الحجر الجيري تردد طقطقة كعبيها، وكذلك الأمر في الطوابق الأخرى. شركة كبرى تعمل بفعالية وسط الاتصالات الهاتفية، والأبواب المدفوعة بقدم متكاسلة، وسلال المهملات المزوقة بصفائح من الورق.

5

كانا جالسين على منصات ملعب والتر أولبريشت.

راقب هانز ترو زميله تيو بيلا الذي يحاول أن يدس ورقة خس نضرة بين شريحتين من الخبز محشوتين بالبيض المسلوق.

ـ هل أنت متأكد أننا لم نكن لنحتاج إلى... ماريا أيش تلك... الآن وقد مات برشت، لعلها تزودنا ببعض المعلومات؟

ـ لا.

ـ أواثق أنت؟

ـ أجل.

أوضح هانز ترو:

ـ لم نعد بحاجة لها.

ـ لم نكن بحاجة لها إطلاقاً.

ـ بلى!

ـ أنت تسخر مني!

ـ لا.

ـ لقد شعرتَ بالحزن حين رحلت عند الأمريكان!...لشرب الكوكاكولا...

ـ أجل.

ـ أريد توضيح مسألة قبل السفر إلى موسكو. أود أن أعرف إن كنت مغرماً بها فعلاً.

ـ أجل.

ـ كنت متأكداً من ذلك.

أكمل تيو شطيرته المؤلفة من الخبز الأسود، وقد غمره شعور بالمصالحة مع العالم. كان يشعر بذلك دائماً حين يأكل فتنتهي هاويات الأحزان والأسئلة الأخيرة. غادرا المنصات وسارا على النطاق الرمادي.

استأنف الكلام:

ـ قل لي، أريد توضيح مسألة بعد.

ـ نعم.

ـ أما زلت مغرماً بها؟

ـ أجل.

ـ ولكنك، معها، هل...

ـ لا.

ـ أبداً؟

ـ أبداً.

خرجا من الملعب وقصدا محطة القطار. ألقى هانز نظرة على ساعة يده ورفع ياقة معطفه المطري. سبع دقائق بعد. سوف يكون القطار مكتظاً بالعمال.

انحنى هانز في المقصورة وهمس لتيو الملتصق به بسبب الزحمة: "إسمع، لا توقظ الذكريات ولا تذيب السكر في قهوتك بموسكو، هل تفهمني؟ لا أريدك أن تلفظ إسم ماريا أيش بعد اليوم...".

افترقا عند ألكسندربلاتز، ترجل هانز من الخط 3، وتوجه إلى ممر الحديقة التي شاهد فيها ماريا للمرة الأخيرة بدون أن تلمحه هي.

هنا، يسود الصمت، مواد البناء، الفحم، الأسيجة، التخشيبات. الخطى المتثاقلة لخفير يحرس خزاناً. قصد أرصفة النهر. سار طويلاً بمحاذاة الماء، الأبواب الفولاذية العملاقة لاتحاد صناعي، دخل إلى مقهى الثور. احتسى ثلاثة أكواب من الجعة وقدحاً من الشنابس، ثم مضى، إذ استرد نشاطه، في ظل الجسر المجاور.

6

في صيف 1954، تبادلت ألمانيا الديمقراطية وألمانيا الاتحادية بعض المذكرات، وأنشئت منطقة محظورة تتألف من خمسة كيلومترات على طول الحدود مع جمهورية ألمانيا الاتحادية.

اعترى ماريا القلق. ركبت مع ابنتها القطار الداخلي الذي غالباً ما يتعرض للتفتيش مع حقيبتين وعنوان زودها به أحد المدرسين. كان عليها السفر إلى بفورتزايم في بادفرتمبرغ التي يحتاج فيها معهد كاثوليكي لمدرس لغة ألمانية.

جلست في إحدى المقصورات السمراء والقذرة بعض الشيء مع ابنتها التي سرعان ما غفت، واجتازت ألمانيا بهضابها المسالمة، وحقولها الشاسعة، والمسطحة، والمتموجة قليلاً. عند المغيب، يصادف المرء غابات وحصوناً عسكرية، ومخيمات، واستحكامات، ومناطق دفاعية. تحقق رجال يرتدون معاطف مطرية رمادية وقبعات بنية بانتظام من جواز سفرها. ثم أعقب ذلك مساليط ضوئية، ومناطق دفاعية أخرى، وبزات أميركية وانجليزية، وتحقق من جواز السفر ومحتوى الحقيبتين... رأت ماريا ماضيها البرليني يبتعد بعد ماضيها في فيينا. وديان، تلال، جسور، أنهار، وأنقاض.

انتابها الشعور، تحت السماء الشاحبة في دوسلدورف، بأنها سوف تتخلى أخيراً عن أية رغبة بالوجود. خلّفت وراءها في برلين كل رغبة بالشهرة. سوف تتنازل عن أناها القديمة وتنخرط في تستر الجموع.

تأملت الطبيعة التي تشبهها تطفو. السرخس على مد النظر، الغابات المظلمة. من الآن فصاعداً، سوف يصبح سرها وهويتها المغفلة رفيقي سفرها. سوف تهتم بابنتها وبنفسها بصبر وتعقل.

كانت مستغرقة في مثل هذه الأفكار حين بلغت محطة كولونيا. استقلت قطاراً آخر، أصغر حجماً، ضيقاً، يصدر صريراً خشبياً. قلبها منقبض، قلبها أسير وليس قلباً متوقداً بعد اليوم. وصلت إلى مدينة بفورتزايم وسط الوديان الهادئة. شعرت بأنها تحيا مجدداً في هذه الطبيعة الحرجية.

انقضت أشهر كانون الثاني/جانفي، وشباط/فيفري، وآذار/مارس، ونيسان/أفريل. طقس عاصف، طقس صاف. استقرت في بيت جميل رمادي شيد في الثلاثينيات تطل شرفته الخشبية على الحي السكني. غمرها إحساس بالامتنان. كانت تسمع أجراس كنيسة، وتملك حديقة جميلة. اعتادت بسهولة على حياتها كمدرِّسة واستمتعت بإجازاتها الطويلة. كانت لوتي تكبر. اشترت ماريا سيارة أوبل مستعملة، وراحت تقودها كثيراً على تلك الطرقات الملساء والرطبة في الغابة السوداء، نحو شيلبرون وبادليبنتسل، وكول، وفيلدبرغ، وناغولد. تصل أحياناً إلى توبينغن. هناك، يتملكها الورع أمام البرج الذي عاش فيه الشاعر هولدرلين سنوات الجنون، والمدائح، والاحتفالات. لم تعد تشعر بأنها سجينة أي شيء. لا تتوقع تصفيق الجمهور. لا تخفي وجهها وراء مساحيق التجميل، لا يعتريها هاجس بناء شخصية، لا تتشنج بسبب الخوف الذي يجتاحها حين تنزل السلم من الكواليس إلى الخشبة...

في المعهد، تتحاشى الأحاديث الشخصية. تكتفي بالحديث عن الأحوال الجوية، وهطول الأمطار، والثلج، وحركة الغيوم، وموجات الصقيع المباغتة، وأولى موجات الحر، والكراسي الطويلة، والأمسيات على ضوء الشموع. كان الآخرون يعتقدون أنها سلبية وغبية بعض الشيء؛ ولكن دروسها أثبتت العكس. كانت يقظة، دقيقة، مضحكة، وساخرة مع تلاميذها. تتحدث عن الشاعرين هايني وهولدرلين أكثر مما تتحدث عن كتاب النثر. ترتدي دائماً كنزة صوفية قديمة بيضاء وسوداء وتنورة رمادية. يرى بعض زملائها أن شيئاً ما ينبعث منها يتراوح "بين العفة ورائحة كلور المسابح".

قلما تعلق على الأحداث الجارية باستثناء 13 آب/أوت 1961 عندما باشر السوفيات يمدون الأسلاك ويصفون الحواجز الشائكة، ويصادرون البناة، ويسدون نوافذ الأبنية. كانت برلين تشطر إلى شطرين. علقت على هذا الحدث بعنف: " إنه مجتمع يقتات من الموت ؛ الظلمة لا حد لها، لا حدود لها، ولن تنتهي أبداً".

كانت تلوح غامضة وشبه بكماء. تسبح صيفاً في مسبح فيلدباخ. يفتر الأطفال والنساء حول الحوض منبهرين ببياض ظهرها، وحركات ذراعيها المنتظمة، وانسياب ساقيها، والأخدود الرفيع للفقاعات التي ترافق قدميها. كان ظهرها الأبيض يتألق لدى خروجها في وضح الظهيرة، قرب شرفة الغطس، لتجفف جسدها. كانت مميزة، جميلة، نائية.

يلائمها الحي السكني والمشجر الذي تقطن فيه، ببيوته الضخمة والهادئة، بحدائقه المشذبة، وتضاريسه الوديانية، وشوارعه ذات الزوايا القائمة. كان ينبعث منه شيء من السكينة. لا يشوش هذا الحي سوى تحليق طائرات ستارفايتر الأميركية. انعكاسات معدنية على مستوى أشجار التنوب وسط زئير سرعان ما تمتصه الغيوم. لا يبق

سوى الصمت، وسياج الجار، وكراسي الاسترخاء الطويلة، ودراجة لوتي المستندة إلى بوابة الحديقة.

اهتمت ماريا أشد الاهتمام بصدور الأعمال الكاملة لبرشت لدى دار سوركامب. تصفحت واشترت المجلدات الضخمة. انقضت سنواتها في التمثيل. ما عادت تذكر في الهوامش، وقد سُرَّت لذلك.

كانت تحتفظ بغرام دفين اسمه هانز ترو. تحققت من ذلك ذات مساء كانت تطالع خلاله الصحيفة اليومية على ضفة نهر نيكار. في الصفحة الثامنة، يظهر عدد من عناصر الشرطة بالبزات، عناصر فوبوس. كانوا قد اكتشفوا في قبو أحد المطاعم مدخل نفق ببرلين الشرقية. لمحت بين الوجوه وجه رجل يرتدي بدلة مدنية رمادية، وبدون تردد، تعرفت ماريا فيه على هانز ترو، بتعبيره الفضولي، والشكل الهارب قليلاً لذقنه، وابتسامته الخفيفة. انقبضت معدتها. أحست برقبتها تتشنج، بتلاشيها وجفاف فمها. أصبحت فترة العصر سوداء، قاتمة، فظيعة، والأمسية طويلة لا تنتهي، كئيبة. سارت بمحاذاة بيوت الحي ثم تسلقت الهضاب المائلة للزرقة، ولكن لا شيء أنقذها من الحزن. كانت ساقاها تقتفيان الظلال. فقدت في لحظة واحدة عاداتها، وأفكارها، والإحساس بالثقة الذي استردته بمشقة في هذا المكان، خلال نزهاتها المستوحدة، والساعات التي تقضيها في السباحة، وجولاتها بالسيارة على الطرقات، كل شيء تهشم.

لاذت أخيراً بحانة. شربت لإرخاء خناق الضيق والألم. ولكن ثمة صلاة لم تتحقق أبداً، صلاة ما عاد يرجى منها شيء على الإطلاق كانت قابعة في قرارة نفسها.

في الأسابيع التالية، أولت المزيد من العناية لأعمال تلاميذها. في المساء، كانت تصغي بنهمٍ إلى ما تقوله لها لوتي عن شهادة البكالوريا.

في شهر آب/أوت التالي، اصطحبت ماريا ابنتها إلى جزيرة بوركوم في بحر الشمال. أقامت إقامة كاملة في فندق صغير يدعى غراف فالدرزي. انضم إلى المرأتين شتيفان، وهو تلميذ ثانوي أشقر وطويل القامة، نجح في امتحانات البكالوريا بامتياز. كان يغازل لوتي.

سماء زرقاء، رياح ضعيفة، التكنيسات الكبرى للغيوم والأمواج الهائلة التي ذكرتها بعض الشيء بفصول صيف أخرى لم تسع لتحديدها. تصفحت ماريا الصحف، أكواماً بحالها، صحفاً ألمانية ونمساوية. كان لجدار برلين تأثير غريب على ذهنها. بدلاً من رفض الماركسية، اهتمت بها كما يهتم المرء بقمل النبات أو بالغنغرينا. تشعر في قرارة نفسها بقوى مثبطة، بحالة من التخمر النفسي الغريب. لا تفلح في تصور حياة الآخرين. تمضي نهاراتها تبحلق في العائلات، تتساءل عن الروابط التي تنسجها الكائنات في ما بينها. كيف يكون الزواج؟ كيف يتكلم المرء، ويصمت، ويرقد مع أحدهم، ويتفوه بحماقات، ويلعب الورق، ويعقد الصفقات؟

تتأمل صفوف الشباب الجالسين في المقاهي، رجلاً يصفر لكلبه، سيدتين تعتمر كل منهما قبعة تتقدمان على السد المائي وقد التصقت الواحدة بالأخرى. أجل، كانت مصعوقة بمشهد الحياة اليومية.

عندما عادت في أواخر آب/أوت إلى بفورتزايم، بدون ابنتها، وجدت البيت وأروقته الفارغة، وحديقته المتلألئة والهادئة، ونباتاته الخضراء. ألم يغير غيابها إذن شيئاً؟

في إحدى الأمسيات، وعبر النافذة المشرعة التي كانت قد بسطت عليها غلالة خفيفة لاتقاء الناموس، سمعت رجلاً وامرأة يمران أمام بيتها. كان الرجل يتكلم همساً. فشعرت هي بالتأثر.

كانت النهارات، كما الليالي، منتظمة، لا تنتهي، رتيبة، صامتة. تضع ماريا على العشب كيسها الرياضي، ترتدي مايوه السباحة،

تغطس في مسبح فيلدباخ. تنساب تحت الماء لئلا تزعج الظلال والانعكاسات.

في مساء يوم أحد، حملت مفتاحاً مسطحاً، وكانت بمزاج كئيب، ركبت سيارتها الأوبل، وقصدت المعهد الذي تدرس فيه. فتحت البوابة، سارت قدماها على الأوراق الجافة التي اجتاحت الفناء. كانت سقالة تنتصب على طول السلم ب. دخلت إلى بهو طويل فيه صف من المشاجب النحاسية. في صفها، لم تلمح سوى طاولات أنبوبية الشكل. كانت مظلتها موجودة، مستندة إلى الخزانة. ظلُّ زجاج النافذة يقع على خارطة للعالم. نظرت إلى المقاعد الفارغة والموزعة بانتظام. لا شيء سوى أشباح، أشباح تلاميذ، الكثير من الأشباح.

على اللوح الأسود، رُسمت شجيرات وشمس كبيرة. حاول أحدهم كتابة اسمه معكوساً: ساموت... توماس ربما. ثمة كذلك علبة طباشير تحتوي على الغبار الأبيض ومقصات مدورة الأطراف.

كانت تتفاعل مع رائحة النسيان. تأملت متأثرةً الصور الغبراء لغوته وجان جاك روسو. كل شيء يبدو مهملاً، كل شيء متروك هنا، والصيف تحول إلى خريف.

اقتربت من المكان الذي تقف فيه عادة، قرب المشعاع، أثناء الامتحانات الخطية. من ذلك الموقع، تلمح الفناء. بدأ النهار ينحسر. اكتشفت بريق المدينة الواضح في الأسفل، بعض الأبنية التجارية، الضياء المشبع بالضباب الذي يغلف الحي، النيونات الأولى المضاءة.

تسود سكينة لا تصدق. المدرسة بأكملها جامدة، معتمة، رحبة، خاوية، غريبة، غير حقيقية. استعادت ماريا هدوءها. ظلت نافذة مفتوحة، وراح المطر يقرقع في الفناء. كان مزراب يرشح في الأعلى، ولكن المرء هنا، في هذا الصف، يشعر بنفسه بمنأى عن

العنف الخارجي، وحملات الدعاية، وطائرات ستارفايتر، ومذكرات موسكو.

ظلت مطولاً تتأمل المعاجم والموسوعات والأطالس التي تعج بها أقرب زاوية إلى اللوح، بظلالها الهائلة. ثم فتحت زرين في قميصها وتلمست ذلك الموضع السري الصغير تحت النهد. هنا، ثمة شيء ما يخفق، خفياً، منتظماً.

لعلها عجزت عن فهم برشت والبرلينر أنسامبل... لعل ذكاءها المستوحد ضيق ومحدود ومشوش. هل كانت مدعية؟

ابتسمت لصورة شجيرة تستظل سنديانة عملاقة. أجل، تجسست لا على" الرجل الذي أحبت" بل على الرجل "الذي بهرها". برلين، هناك، تتألق وسط عالم كان غريباً عنها كلياً. تكون لديها الانطباع بأنها تعود إلى ذاتها، ببطء، مثل مريضة في فترة النقاهة. عجزها عن استيعاب الرهانات؟ الأوضاع؟ لا شك أنها كانت شديدة الحساسية؟ شديدة الرومنسية؟ ولكن كل طاقتها، "قلبها المتوقد والنقي"، أفضيا إلى تلك الأمسيات الكئيبة... دورية ليلية، عالم أشباح مستكين... هل بوسعها يوماً أن تبرر لنفسها تجسسها على برشت؟

منذ أمد بعيد للغاية، اختزلها عجزها عن إدراك عالم ثنائي، مشطور، دوغمائي، وبارد إلى مجرد شبح. كانت غياباً عن العالم. تعرف أنها هنا على الأقل، مع أو بدون تلاميذها، في ذلك الصيف المشرف على نهايته، في ذلك الغطاء الشديد الرقة الموضوع على الزمن، تستطيع تدبر أمرها بل وحتى الابتسام. فعنف العالم الخارجي لم يكن يبلغ هذا الفناء.

خرجت، ركبت سيارتها الأوبل، انفرجت السماء. وبقي دفق ضبابي صوب تخوم التنوب.

قادت السيارة نحو وسط المدينة. ليس أمامها سوى الطريق الملساء، ورقع الأرض المنتظمة، البيضاء من كل جانب. تسكعت في ممرات عالم سلمي، أليف وقابل للسكن. كانت طريق، مجرد شريط ومعالم بيضاء منتظمة، تهرب على الجوانب.

فتحت بوابة بيتها. كان عطر شذي يتضوع في الحديقة.

يعـود برتولد برشت عـام 1948 إلى برلين التي يعوِّل فـيها النظام الشـيوعي عليه لبناء مـسرح بروليـتاري واشـتراكي يكون واجـهة ثقـافيـة للنظام. يلتـقي الكاتب المسـرحي بالممثلة مـاريا أيش التي تصبح عشيقته.

لا يعلم بعد أن المرأة الشـابة سوف تدوِّن، يوماً بعد يوم، أقـواله وأفعاله ، وتقـرأ بريده ، وتنقل بأمانة ما تراه وتسـمعه إلى عمـلاء الشتازي أو الشرطـة السياسـية. فـعلى الرغم من الحـفاوة الرسـميـة التي تحيط بـبرشت، كـان بعضـهم يرتاب بذلك الكاتب الذي أمضى سنوات كـثيرة لدى الرأسماليين الأميركيين...

تبدأ في كـواليس مسرح برلـينر أنسامبل لعـبة تبرز فـيها شخـصية ماريا أيش، الأداة الطيـعة والمؤثرة بأيدي النظام التوتاليتـاري ، بمواجهة الجوانب المظلمة والمضيئـة في شخصية برشت المعقَّدة.

توجَّت جـائزة كونغـور 2003 هذه الرواية التي ترسم صورة معبرة عن برلين الناهضة بمشقة وسط أنقاضـها وتقـدم للقارىء رؤية متأملة في حقيقة الفن الذي يواجه الأضاليل السياسية.

١٥

ISBN 9953-71-099-6

$ 5.00